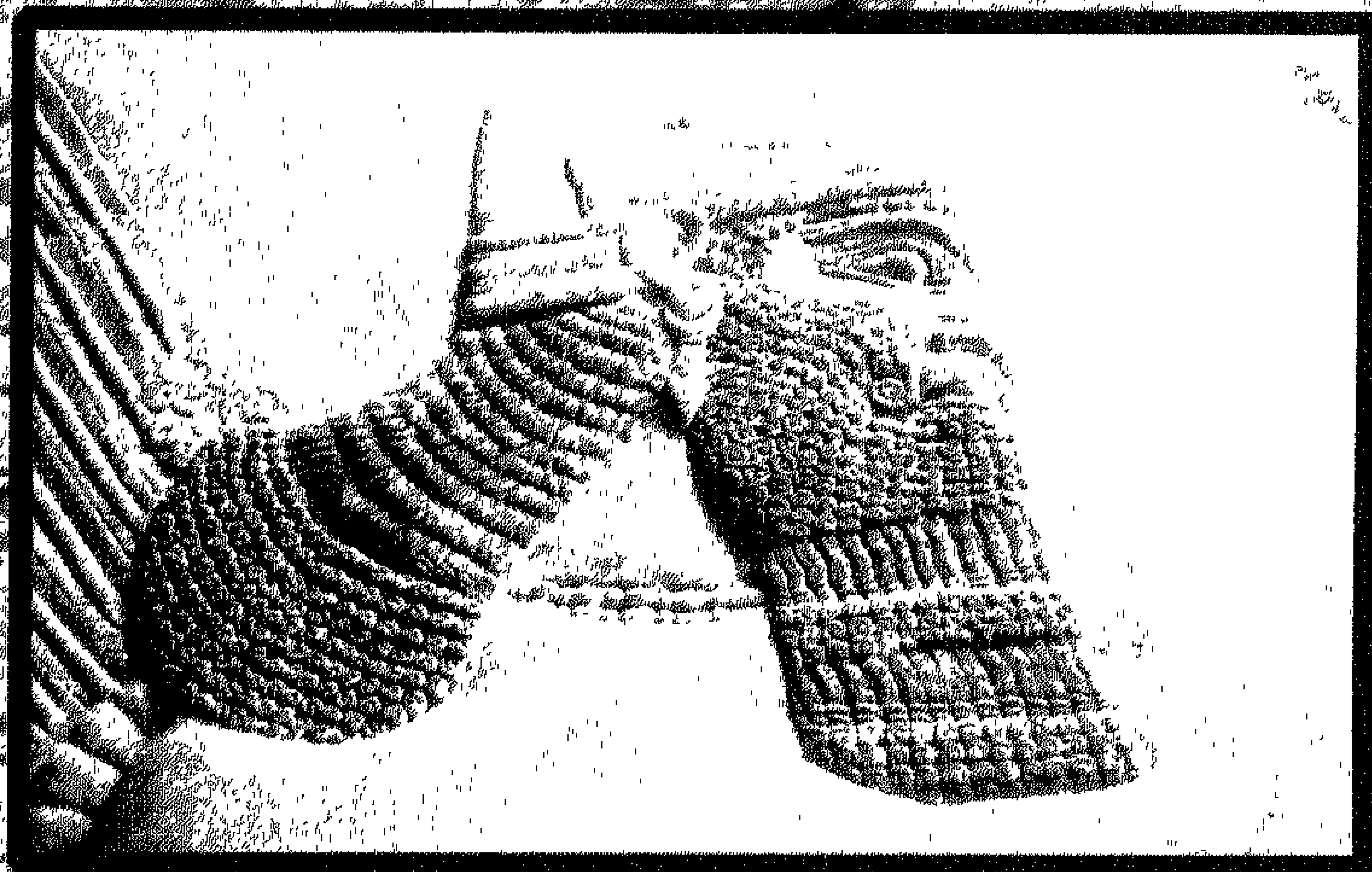
جان بوتيرو

الديانة عند البابليين



ترجمة
د. وليد الجادر

مركز الإنماء الحضاري

الديانـة
عند البابليين

الديانة عند البابليين

تأليف: جان بوتيرو

ترجمة : د. وليد الجادر

الناشر: مركز الإنماء الحضاري

الطبعة الأولى / 2005

الإخراج الفني: أمينة مقداد مصطفى

تصميم الغلاف: رأفت السباعي

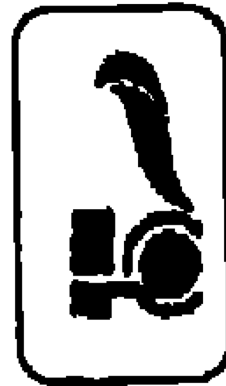
مركز الإنماء الحضاري CEC
CENTER- ESSOR ET CIVILISATION

جان بوتيرو

الديانة
عند البابليين

ترجمة

د. وليد الجادر



jean BOTTERO

la Religion Babylonienne

Presses universitaire de France

Paris, 1952

مقدمة المترجم

مشكلة بدء الخليقة، عاصرت الإنسان بإلحاح، ولم تبطل حيويتها في مطالبة هذا الإنسان بجواب شاف. وإذا كان تقدم الأفكار العلمية والمعرفة الإنسانية، ولاسيما في هذا القرن، قد عقّد من نظرتنا إلى العالم، وبدّل مفهوم التطور، فإن مفهوم الخلق، أو ما يدعى ببداية العالم قد فقد شيئاً من قدرته على إثارة الخيال والتعمق فيه لدى الكثير من المعاصرين. أما الإنسان البدائي فيبدو أنه تحت وطأة هذه المشكلة وبصورة خاصة إذا عرفنا مدى ارتباطها بحياته اليومية وبقلقه وتطلعه .

يقول العلامة براندون G. F. Brandon في مؤلفه الشيق (أساطير التكوين).* « إن ظاهرة الولادة لعبت دوراً رئيسياً في إمداد العقل البشري بالمفاهيم الأولى عن بداية الخلق ».

إن النصوص السومرية التي تبحث في الخليقة تبين اهتمام السومريين بالأصول، وقد عبّروا عن ذلك بأدبيات بديعة التكوين، كرست أيضاً لتعليل الظواهر، وتطورت أساليبهم بعد ذلك إلى الاهتمام بمصير الإنسان والكون.

أما تعليلات الساميين للوجود البشري والكوني، ففيها غياب الصراع بين الخير والشر، وفي متن مؤلفنا هذا المترجم، تشخيصات عميقة الأهمية لمفاهيم الساميين في ذلك.

لقد عني الفرس القدماء وإلى فترة قريبة من التاريخ بمشكلة الشر وأصوله وافترض لاهورا مزدا روحان: أحدهما خيّر والآخر شرير.

---

* Creation Legends of The Ancient Near East

ولفهم تاريخ حضارة ما من الحضارات المعاصرة لحضارة وادي الرافدين - بصورة خاصة - ينبغي دراسة نفسية الإنسان (الفرد) وكذلك مدى تحسسه لما يحيط به من متعلقات يومية مباشرة أو غير مباشرة.

ومن هذا ما نجده مجسداً في نظرة المسلمين للتاريخ فهي التي تتقارب إلى حد ما مع نظرة الساميين وبصورة خاصة حينما نجدهم يدللون على أن البشرية، في حالة اعتناقها لتعاليم الوحي القرآني، تكون إرادتها منسجمة مع إرادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره، ويعم الإخاء بين البشر.

وخلال كل تاريخ البابليين الطويل، نجد أن آلهة بابل تتميز بثلاثة مظاهر رئيسة: أولاً: أنها كائنات سماوية: وتحت هذا المظهر فإن هذه الآلهة تحمل علامة النجمة في بداية أسمائها كرمز لها، ثانياً : أنّ هذه الآلهة تكون سيدة القوى في الكون (القوى المادية والمعنوية). ثالثاً: تعتبر هذه الآلهة الأسياد الأصليين في المدن والممالك. فالمدينة كانت مرسومة منذ البدء تحت سيطرة آلهة أو إله معين يسكن المدينة حتى النهاية، وقطاعه السماوي هو الكوكب والنجم. وبصورة عامة فتلك منطقة تعود إلى هذا الإله حتى النهاية أيضاً. ولكن تقسيم السيطرة الفعلية، أو بتعبير آخر السيطرة الإلهية وتنظيمها على الكون تؤثر على التنظيمات السياسية أيضاً وبذلك تشمل الاضطراب وعدم الاستقرار اللذين يسودان طبقة الآلهة.

ثم إنّ المنطقة العائدة لسيطرة كل إله محدودة بحدود مجاله في السماء. وفي حالة تصادمه مع المناطق المجاورة له، فإن الإلهين المتخاصمين يدخلان المعركة أيضاً. وبتمركز الإمبراطورية المركزية الحكم، تطور الميل نحو فكرة التوحيد الذي يهدف إلى حصر كل القوى بيد إله واحد كما يهدف إلى إعادة تنظيم جميع الآلهة بصورة سلمية.

ومما تقدم، يبدو أن ما يتناوله الكتاب ليس هو بالأمر الاعتباطي وقد صار علماً يدرس ويطور ويتابع متبعاً الأسلوب العلمي في بحث هذه الظواهر. وأدع توضيح كل ذلك للأستاذ العلامة إدوارد دورم الذي قدم للكتاب. وإنني لمسرور أن أضع جهدي المتواضع في ترجمة هذا الكتاب بين يدي من يعنون بهذه المواضيع، على أن يجد المثقفون عامة فيه كثيراً من بعد النظر والمتعة.

وقد ارتأيت توضيح بعض الأدبيات الدينية فاخترت عدة نماذج قديمة ملازمة للنص توضح بعض جوانب الديانة الموضوعة البحث.. وشرحت هذه النماذج معلقاً عليها بما يلزم وأرجو أن تعين القارئ على تمثل الجو الحي الذي كان يشيع في هذه الديانات القديمة.

مقدمة عن الكتاب والمؤلف للعلامة إدوارد دورم (E. Dhorem)

جان بوتيرو، Jean Bottero مؤلف هذا الكتاب معروف جيداً لدى علماء الآشوريات. وتعتبر أعماله من الصنف الأول في حقل الكتابات المسمارية وقراءة النصوص وبصورة خاصة من قطنا[1]. كما عرف عن العلامة بوتيرو كونه ملماً أيضاً بآثار وكتابات البابليين بصورة خاصة. وقد استقبلت عمل بوتيرو في مجلة الآشوريات والآثار الشرقية بحفاوة.

إن المواد المترجمة من اللغات القديمة للعلامة بوتيرو التي نشرت في هذه المجلة العلمية في عامي ١٩٤٩و١٩٥٠ بمبادرة من العلامة فيرولو الذي بدأ النشر في المجلة ذاتها عام ١٩٢٨ وفي مجلة الآثار (Syria) منذ عام ١٩٣٠ لها أهمية خاصة في مجال البحث في تاريخ الديانات، كما أن المؤلفين بوتيرو وفيرولو هما اللذان شرحا الكنز الوثائقي الخاص بالمعلومات عن آلهة سومرية - آكدية اقتبست عبادتها بعد ذلك من قبل الساميين الغربيين في بدايات الألف الثاني ق.م. إن هذه الآلهة تحمل اسماً شهيراً يترجم ببساطة بـ (سيدة القصر).

وقد بين الشارحان بتوضيحاتهما الصائبة مدى الأهمية المعطاة لمفهوم (التشبيه الديني) في وادي الرافدين، وأوضحوا كذلك كيفية انتشار هذا المفهوم في نواحي سورية في منتصف الألف الثاني ق.م [2] .

إن نشاطات العلامة جان بوتيرو في حقل اللغات والآداب المتمثلة بالكتابات المسمارية، توضح لنا مدى المساهمة العميقة التي أبداها في نشر المؤلفات المنسقة والعلمية للنصوص العديدة جداً الخاصة بوثائق مدينة ماري (تل

١- وهي إحدى المدن الأثرية السورية وتدعى اليوم « المشرفة » تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص في سورية.

2- Revue d,Assyrioloie 1949, 39.

الحريري). وقد نشرت هذه المؤلفات بإشراف البروفسور أندريه بارو والعلامة دوسان. MM. A.Parrot et Dossin.

غير أن آفاق باحثنا ليست محدودة بهذه الأعمال الخاصة بالتاريخ، فقط، فله كذلك بحوث في تاريخ الوقائع، وأصالة المفاهيم المستنتجة في حقل ممارسة الطقوس والشعائر الدينية في حضارات الساميين القديمة، القريبة كثيراً من التوراة، وقد جذبت هذه المفاهيم القديمة فترة طويلة تفكير المؤلف المتشوق لعوالم الماضي.

إن المشكلة المدروسة في هذا الكتاب هي من المشاكل صعبة الحل، ولكنها على أية حال مشوقة جداً، ذلك لأنها تنورنا عن مكانة الساميين في تطوير الفكر الديني وعن المظهر الخارجي لهذا الفكر في وادي الرافدين القديم.

ومع الصعوبات الجمّة الواجب قهرها، فإننا متأكدون بأن المؤلف مجهز بأنواع الأسلحة الفكرية كافة لإعطاء الوثائق والشواهد من الآثار وكل ما يساعد على تذليل هذه الصعوبات.

إن وضوح بحثه لا يضجر أبداً، وخاصة ذوي الآفاق الواسعة في التفكير. وإنني لسعيد بأن أقدم مؤلفه هذا للقراء الذين سيجدون الجواب على العديد من الأسئلة التي يطرحها كل فكر مثقف قلق يتتبع الإنسانية في بحثها عن الوجود الإلهي.

مقدمة المؤلف

المشكلة:

العنوان الصحيح الذي كان من الواجب وضعه في بداية هذا البحث، هو: ديانة الساميين في وادي الرافدين القديم.

لقد عرف هذا القطر ذي الأرض المتكونة من غرين نهري دجلة والفرات أنه كان مسرحاً لاستيطان مجموعتين بشريتين اختلطتا ببعضهما وكونتا شعب وادي الرافدين. وهاتان المجموعتان هما: السومريون أولاً، ومجموعات صغيرة من الساميين، اختلطت في هذا الوادي قبل بداية التاريخ، التي كانت مليئة بالصراعات بين المجموعتين.

إن أصل الساميين وقرابتهم لنا معروفة جيداً، فقد عاش ويعيش حتى الآن أحفاد الساميين في مساحات شاسعة من الشرق الأدنى. أما أصل السومريين فلا يزال محوطاً بالغموض. وبالرغم من الجهود العظيمة التي بذلت في هذا المضمار، لم يتمكن أي آثاري أو مؤرخ من إرجاعهم بصورة أكيدة إلى غصن من أغصان المجموعة البشرية.

ومع ذلك، فإننا نعلم بأنهم كانوا الأصل والدافع للحضارة العريقة التي أثرت خلال تاريخها اللامع في جنوب وادي الرافدين طوال ثلاثة آلاف من السنين، وامتدت تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة، حتى العصور الهيلنية.

بجانب السومريين كان هناك الساميون الجدد ممثلين جانباً فقيراً متتلمذاً، وبحكم كونهم بدواً قادمين من الصحراء، كان عليهم تعلم كل شيء، ولقد أخذوا كل شيء من السومريين تقريباً. وبالمناسبة فإن من المهمات الصعبة تجاه ذلك معرفة ما إذا كان هؤلاء الساميون البدو يحملون في البداية شيئاً من الحضارة والفكر وتحديد مدى مساهمتهم الخاصة بالنسبة لحضارة وادي الرافدين. إن

هذه الصعوبة تتجسد بصورة خاصة في حقل الديانة؛ وليس بين المؤرخين وعلماء النفس واللاهوت وغيرهم من الباحثين من ينكر الأهمية البالغة للساميين، وقد دفع ذلك بالمختصين إلى دراسة مدى جدية العلاقة بينهم وبين ما هو مقدس وإلهي. إنه لمن المعروف جيداً أن المعتقدات الدينية عند سكان وادي الرافدين تزودنا بوثائق غنية وكثيرة؛ تغطي تاريخ الديانة خلال ثلاثة آلاف سنة. وهذه المعتقدات الدينية والوثائق الخاصة يمكن أن تفهم أنها هي التي سبقت الديانة المسيحية. وقياساً على ظهور الكتابة على يد السومريين (ذوي الحضارة العريقة) أولاً واستمرار تطورها على يد الساميين الذين اقتبسوا من هذه الحضارة بعد ذلك، ؛ نقول هل يمكن الاعتقاد بأن ديانة الساميين أنفسهم كانت أيضاً ذات أصول سومرية ؟

من المتعارف عليه بين المفكرين المختصين في حضارة وادي الرافدين أن الجواب على مثل هذه الأسئلة هو في غاية الدقة والصعوبة، والطريقة الأفضل لتفهم المشكلة قد تكون بالاسترشاد بقول أرسطو: « تتبع الحوادث منذ أصولها للإلمام بها كما كانت أصلاً ».

والديانة السامية في وادي الرافدين ابتداءً من ينبوعها الأول كانت خيالية: إن بداية اتصالهم بالسومريين ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ. ولكن تتبع هذه الصلة وتتبع اتصالهم هذا خطوة فخطوة وبدقة يعتبرونها من الأوهام: فالوثائق الكثيرة المتوفرة لدينا والمهمة جداً لم تستطع بعد توضيح هذا الأمر ويستلزم منا وقتاً طويلاً لترتيب التواريخ وإماطة اللثام عن الحوادث الغامضة جداً.

فهل يكفي لنا لغرض مجرد ربط الحوادث بصورة سريعة ومستعجلة في خضم هذا البحر الطويل من الزمن، أن نحوز على نقطة الانطلاق الابتدائية لمنحنى ما ثم نقطة الوصل الوسطى ومنها إلى الأخيرة، وقد نستطيع بذلك أن نعرف على الأقل الاتجاه الرئيسي والخط العام للمشكلة وهو ما يؤلف محور بحثنا في هذا الكتاب.

إن مهمة المؤرخ الأولى هي وجوب عدم الدخول في مواضيع جانبية لغرض معرفة الأشياء التي لا تجيزها الوثائق المتوفرة.. إن نقطة « الانطلاق الرئيسية للمنحنى » هي التي تسمح لنا بإعادة البناء المقارن الذي نرغب في معرفته منذ

زمن طويل عن الديانات السامية بصورة عامة، والفكر الديني عند الساميين بصورة خاصة، وكذلك من ترجمات النصوص المسمارية المختصة في هذا الحقل.

« ونقطة المنحنى الأخيرة » هي حصيلة الديانة في وادي الرافدين بعد ألوف السنوات من الوجود، وهي مرحلة تنوعها في العالم الهيليني.

أما « نقطة الوسط » من هذا المنحنى فهي ممثلة لنا بالعصر البابلي الأول الذي يقع في حوالي ١٩٠٠ قبل الميلاد، وفي هذا العصر بالذات يتخطى الساميون في وادي الرافدين السومريين. ويسبقونهم بل ويحلون محلهم، ومن هذا التاريخ يجب أن نبدأ دراستنا للديانة في وادي الرافدين، وهذا أيضاً هو مبرر اختيار موضوع الكتاب: الديانة البابلية[1] وسوف نبحث فقط في التطور الكلي للوقائع دون التعمق في التفاصيل وبقدر ما تسمح به الوثائق، مبتدئين أولاً بالديانة الأولى، وذات الأصل السومري وفروعها الرئيسة[2] واصلين بذلك حتى العصر الهيليني، مستغلين أيضاً الفكر الديني عند الساميين.

---

١ - لتوضيح عنوان هذا الكتاب فإن التمييز الدقيق والمتواصل بين البابليين والآشوريين غير مهم هنا، والاصطلاح (بابلي) يشمل هنا الساميين في واد الرافدين بصورة عامة بعد بداية الألف الثاني ق.م. (انظر ص ١٢ وما بعدها من هذا الكتاب) - المؤلف.

٢ - إن الديانة السومرية بحد ذاتها لم تشرح وتدرس حتى اليوم بصورة موسعة وتفصيلية. فهذه الديانة لم تسلم من تأثير الساميين في بداية اتصالهم بها، وهذا بالطبع مما يجعل بحثها بدقة أكثر صعوبة، والمعروف أنه منذ سنوات قليلة فقط قد بدئ في دراسة الأديان الخاصة بالديانة السومرية وتشعبات هذه الأخيرة. أما التفكير الخاص بهذه الديانة فقد بدأ بشرحه منذ مدة بعيدة نسبياً وساهم في ذلك بصورة رئيسة العلماء: ش.ف جان، والدكتور كونتينو M. Ch. F. Jean, Cotenau. في مؤلفاته الكثيرة. وفي رأيي أن الأخير من القلائل الذين نجحوا في فصل التشعبات الرئيسة الخاصة بالديانة السومرية عن الفكر السومري. إن الطقوس الخاصة بالقوى الطبيعية ولاسيما الخاصة بكثرة النسل والإخصاب، مثلت بشخوص آلهة مختلفة من الجنسين (والغالب العنصر النسائي)، وقد كانت هذه الشخوص الإلهية متصلة محلياً بصورة محكمة كل « بعائلتها » في المدينة المعينة، وهذا ما يمليه التنظيم الصارم لها، وكذلك نجد الزواج المقدس الذي يجري فيه اتصال الإله والإلهة موغرين بذلك ومسببين في الوقت ذاته: الإخصاب لدى الإنسان والحيوان والنبات. وربما يرمز هذا الزواج أيضاً إلى مرحلة الحياة: منذ الولادة وحتى الموت.

(المؤلف)

وربما يمكننا أخيراً التكهن ثم القول بأن ديانة الساميين في وادي الرافدين ليست من السومريين أصلاً وإنما هي ديانة أصيلة وبالإمكان ربطها وجعلها ضمن العائلة الكبيرة لديانات الساميين الآخرين.

الفصل الأول

الساميون ودياناتهم

الساميون

إن المقارنة بين اللغات العبرية، والآرامية، والأثيوبية، والأكدية أدت إلى إثبات، أن كل هذه اللغات تطورت عن لغة واحدة تكلم بها شعب كان موحداً أول الأمر، ثم انشق وتفرق في مناطق مختلفة. ولهذا الشعب ولغته أعطيت التسمية « سامية » اقتباساً من سفر التكوين الإصحاح العاشر: ٢١...

كان الساميون قبل التاريخ محصورين في منطقة تمتد بين البحر المتوسط غرباً ومرتفعات إيران الغربية شرقاً وامتدت حتى حدود الجبال المحاذية لأعالي الفرات شمالاً، وأطراف البحر الأحمر جنوباً.

وقد استوطن الساميون المتحضرون أطراف هذا الإقليم بينما ظل المقيمون في الوسط، أي في وسط المنطقة هذه، أي في صحراء سورية العربية بدواً رحلاً.

في هذا الوضع الجغرافي يتحدد المكان والوسط الخاص بالساميين بالمنطقة العربية الصحراوية وحالتها البدائية، وحياتها البدوية. لكننا نجد هذا الموضع محاطاً وخاصة من الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي بأناس متحضرين جزئياً، وبعضهم متمدن كلياً، ولذلك فإن شعب فلسطين في عصور ما قبل التاريخ، وكذلك مجموعات منطقة سورية وسومريي وادي الرافدين حاولوا جميعاً أن يعيشوا بجنبهم، ومن ثم مختلطين بهم، وأخيراً رؤساء عليهم، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانوا يضيفون نصراً على نصر، حتى أصبحوا أكثر ملكية للموقع والحضارة تقريباً من الساميين الأوائل، وذابوا في حضارتهم بكل أعماقها واستمروا في تطويرها وترقيتها، وقد كانت محاولات هذه الشعوب المغامرة في سبيل الوصول إلى هذه المرحلة متواصلة منذ بداية التاريخ.

ويرجح أن مجيء الساميين واستقرارهم في أكد في القسم الشمالي من جنوب وادي الرافدين، قد جرت قبل بداية الألف الثالث ق.م، ولقد تسرب هؤلاء إلى هذه المنطقة على حساب المحتلين الأوائل وهم السومريون.

ففي حوالي ٢٥٠٠ ق.م. وتحت قيادة سرجون الأكدي وصل هؤلاء الساميون إلى المنطقة وسيطروا على كل وادي الرافدين بالقوة، واستمرت سيطرتهم قرناً ونصف القرن وتجددت منطقة نفوذهم من عيلام في إيران، حتى سورية وبلغوا أيضاً شمالاً حتى آسيا الصغرى.

ومن الجهة الأخرى وفي منطقة سورية - فلسطين وفي حوالي الـ ٣٠٠٠ ق.م. فإن جماعة من الساميين المسماة « بالكنعانيين » أخذوا لهم مكاناً بنفس الطريقة على حساب الجماعات السابقة في المنطقة وافتتحوا حضارة سميت بحضارة العصر البرونزي الأول.

ومنذ نهاية الألف الثالث ق.م. وبداية الألف الثاني شمل توسع الساميين الرحل في كل أطراف جزيرة سورية العربية وخاصة العموريين الذين اندفعوا في كافة الجهات على مناهل الخصب الحضاري، حتى أنهم هددوا حدود مصر وتسربوا إلى فلسطين وسورية، وسيطروا على بعض مستوطنات الكنعانيين. ومن الجهة الأخرى فإنهم نشطوا للنفوذ إلى منطقة وادي الرافدين في عصر سومر الذهبي، عصر سلالة أور الثالثة. ونجح هؤلاء العموريون في أخذ زمام الأمور في مدينة ماري ولارسا وذلك في حوالي ٢٠٠٠ ق.م وبعد ذلك أي في حوالي ١٩٠٠ ق.م بلغ نفوذهم بابل نفسها، ومن حكامهم عليها نعرف (سومو - آبوم) (Sumu-abum)، وفي حوالي عام ١٨٥٠ بلغ نفوذهم آشور ومنهم (شمشي أداد الأول). وفي القسم الأول من وادي الرافدين، حيث عاش السومريون، فإن الساميين يحلون مكانهم كلياً.

وخلال سني الألف الثاني ق.م. استمرت قبائل الساميين الرحل في اندفاعها من جديد نحو الغرب والشمال الغربي ولم تتوقف تدفقاتهم وتهدأ إلا بظهور القوى الجديدة في الشمال من الحثيين والحوريين والميتانيين.

وفي حوالي ١٧٠٠ ق.م. بدأت موجة الهكسوس الذين غزوا مصر واستقروا فيها ١٥٠ عاماً. ونحن نعرف أن الساميين يؤلفون جزءاً ليس بالقليل من هؤلاء الهكسوس. وبعد ذلك، في عصر العمارنة (القرن الرابع عشر ق.م) يستأنف

الساميون الرحل من جديد تهديداتهم بالغزو، فنراهم على أطراف الممالك الصغيرة السورية ـ الفلسطينية التابعة للفراعنة منذ السلالة الثامنة عشرة وانتهى الساميون هؤلاء إلى الاستقرار هنا وهناك مكونين عدة ممالك صغيرة آرامية في سورية. أما في فلسطين، فقد كان الإسرائيليون الخارجون من مصر، قد بدؤوا غزوهم في هذا الوقت لبلد كنعان.

وفي حوالي ٥٠٠ ق.م جاء من الجزيرة العربية غزاة ساميون جدد، وهم النبطيون وقد سيطروا على جنوبي شرقي فلسطين وكونوا حول البتراء مملكة تجارية ظلت مزدهرة لمدة طويلة.

وأخيراً فإن الجميع يعرفون التوسع الهائل للإسلام، الذي أوصل العرب منذ القرن السابع من تاريخنا إلى فرنسا وقلب إفريقيا وإلى ما وراء أطراف الهند من الشرق.

ديانة الساميين

عدا ما هو تام الثبوت عند الساميين، أعني اللغة فإن من الصعب تثبيت الخطوط العريضة لحضارة الساميين الخاصة التي حافظوا عليها في كل جهة ومكان، وحتى بعد تفرقهم وتبددهم. وتعود هذه الصعوبة إلى الفقر الثقافي لجماعات الساميين الرحل بصورة عامة، وكذلك لمرونة هؤلاء الساميين في اقتباس الجديد وسهولة تطبعهم الهائلة. إن كل هؤلاء الذين هجروا الصحراء ودخلوا في أوساط الأجانب الذين تحضروا منذ مدة طويلة كل على طريقته، كل هؤلاء الداخلين من الساميين انصهروا أخيراً في هذه الشعوب ومارسوا وأكملوا بعد ذلك تقاليدها.

ومع هذا فقد قاومت امتدادات لعقليتهم هنا وهناك، وهو ما نلمسه بصورة خاصة في حقل ديانتهم.. وقد تمكنا من جمع تراثهم وإحيائه.

لقد حافظوا في كل مكان على اللفظ الذي يعني « الله » فهو في الأكدية « إيلو » و « أل » في العبرية وهو إله في لسان الآراميين و « الله » عند العرب. أما المعنى الأصلي لهذا اللفظ فهو غير معروف. ولكن لكونه مستعملاً لكل « منعوت » سماوي فإنه لم يخصص « للتسمية » الإلهية: وقبل ذلك عرف كاسم إله خاص في التقاليد العبرانية يعني ما يشبه الله الخاص بالآباء، ويظهر أنه الإله الوحيد عندهم، ويفهم من نصوص رأس شمرا (أوغاريت) أن الأب كان يتبوأ الرسالة في الهيكل. إن هذه الأمثلة ترجح الفرضية التي تنادي بأن الإله (أل) هو الإله المشترك والأول، ويحتمل أن يكون الإله الوحيد عند الساميين[1]

---

[1] انظر للتوسع في ذلك: لاكرانج: دراسات في الديانات السامية. الطبعة الثانية ١٩٠٥ ص ٧٠
Lagrange. Étuds sur les religions Sémitique. 2e édition. 1905, P. 70...

ويظهر أن التعلق بالشرك والإيمان به وتطور ذلك بدأ مبكراً، ويرجع ذلك إلى وضع الساميين القبلي وتفرقهم وانفصالهم عن بعضهم: لقد عبدوا هذا الإله الموجود في أماكن مختلفة والذي يأخذ شكلاً مستقلاً (ويسقط من الحساب هنا اقتباس الغزاة منهم للآلهة الخاصة بالمناطق المغزوة).

إن تحليل أسماء الكثير من هذه الآلهة المتعددة عند الساميين، يعكس لنا التأثير البالغ الذي تركته الكواكب والظواهر الطبيعية كالبرق والرعد على نفوسهم، وأثرها في إيمانهم الديني؛ فعندهم مثلاً إله القمر (يراح، شراه والخ...)، وإله الشمس (شماش، شمش) وهي عند سامي الجزيرة العربية (آلهة مؤنثة)، كذلك إلهة كوكب فينوس وهي عشتار ثم إله الرعد (أداد، ريمون والخ..).

وهناك صفتان يتميز بهما المقدس الإلهي عند الساميين، هما: أولاً الشعور العميق بشخصيته، فإن « ألانت » يعني « أنت هنا ». ولم ينعت الساميون آلهتهم بأسماء تجريدية إلا نادراً. كذلك فإن مذهب التشبيه دارج بينهم حتى إنهم جنحوا إلى تقديس الحيوانات[1] معبرين بذلك عن الهيئة الصحيحة للصورة الإلهية بكونها على هذا الشكل حسب نظرتهم.

وثانياً: الشعور بأن الإله له القوة الخارقة، والسيطرة الأبدية وبهذا سموا الإله « سيد » وبلغة الساميين (بعل). وعند الساميين الأكديين: (بيلوا). ويعني ذلك في المفهوم الديني: مالك البشر والأشياء أو الموجودات، ومقابل هذه المعطيات، فإن هذه السيطرة تمتد إلى تملك كل شيء: فللإله تعود الأرض والدولة. ومن هنا فهناك مثلاً عدة « سادة » (بعل) محليين: فهناك بعل إربد وبعل بيبلوس (طرابلس اليوم) وبعل لبنان. وهناك أقسام معينة من أرض الدولة مخصصة للآلهة وتخدم على أساس أنها مخصصة لأداء الطقوس والشعائر، وكمثل على ذلك مناطق الينابيع، ومناطق الجنينات الصغيرة، قمم التلال أو الجبال وحتى الأشجار الكبيرة أو النصب الطبيعية من الحجر وغير ذلك. وكل هذه كانت مكرسة لشخصية إلهية، وممنوعة على أي استعمال آخر غير ديني. وكان « للتكريس » بمعنى تخصيص كل شيء للإله، في نظر الساميين أهمية

---

[1]- يظهر أن مبدأ التشبيه وتقديس الحيوانات عند الساميين هو اقتباس واستعارة أخذ بها منذ عهودهم الأولى.

كبيرة خلال كل العصور. ونحن نجد هذا المبدأ عندهم في كل منحى من مناحي حياتهم الطقوسية. وكجزء منه تلك العادة التي تملي عليهم عدم التقرب من مجموعة من الأشياء التي هي عندهم غير نظيفة وغير نقية. وكذلك: تلك الهيبة المتطرفة التي تتأتى من تصور الإله حاضراً في كل مكان. وهذا التطرف البعيد، الذي لا يتضاءل إلى تجريد غامض، يحيط بالإنسان. ويحيط بالإنسان من كل جانب، ويتظاهر في كل مكان كحقيقة وجوده. ومع هذا التطرف البعيد نجد أن ليس هناك تجريد غامض.

إن الإله هو مرشد وسيد البشر أيضاً وهو بهذا كالقائد، إنه سلطان إزاء بواعثه: « ملك »، وهذه صفة ونعت لعدة آلهة سامية، واسم كامل لإله خاص. على هذا فإن الإله: يدير بهذا المركز الشرعي القانوني والتنفيذي. إن القوانين والعادات والأساليب الاجتماعية الخاصة بصيانة محافظة أملاك وحياة المجموعة وأعضائها عائدة هي أيضاً لهذا الإله ومنه يلتمس المسؤولون السماح بممارسة سلطاتهم، والإله نفسه يسهر على سير تطبيقها. إنه المرشد القانوني، إنه حاكم وهو لقب إلهي أيضاً.

ومع ذلك فإن السيطرة الربانية للإله. الملك كانت مخففة بثقة خاصة بحمايته، وهذا ما يفسر مثلاً بالحرف الأخير التابع الخاص بالتملك في إلهي، ومن نداءات أخرى مشابهة وكذلك في أسماء القرابة (أب، أخ، عم ...) فإنها غالباً مرادفة لأسماء الآلهة. ونجد ذلك خصوصاً في أسماء الأشخاص، وليس هذا في سبيل لذة معينة أو لمجرد الرغبة في تقريب الشخص نفسه من الله أو بالعكس، وقد حافظ الساميون تجاه الله على بعد معين مناسب لما لهم تجاهه من احترام وعاطفة قوية. ويظهر هذا مثلاً في « الله أكبر » وهو اصطلاح يقوله العرب دائماً ونجد في التوراة عبارة تتكرر غالباً « آني ألوهيم » أي أنا هو الله! . ونجد أيضاً فيما مقدر تجاه القوة الإلهية وأمام النكبات: ما يقوله في التوراة « عالي » الكاهن إلى « صموئيل » الذي يحذره من سقوط وانهيار داره:

« إنه يهوه، ماذا يريد عمله فليعمله[1] إن هذا المفهوم الديني الخاص بالساميين تجاه الله والمتأتي من احتفاظهم بالشعور بالعظمة الإلهية، من بعيد،

---

[1]- انظر التوراة: سفر الملوك الأمل الإصحاح.

وشعورهم بحضور الإله في كل مكان، وبهذا فقد برهنوا أنهم من الشعوب الأقوى تديناً على الأرض. فمن أربع ديانات عالمية وكبيرة ومنتشرة في العالم هي البوذية واليهودية والمسيحية والإسلام نجد ثلاثة منها - وهي الأخيرة - تعود جذورها إليهم، أي إلى الساميين[1] .

[1]- الديانة اليهودية الخاصة بالنبوة بالطبع. (المؤلف)

الفصل الثاني

الساميون
في وادي الرافدين وديانتهم

الساميون
في وادي الرافدين ودياناتهم

من البديهي أن الملاحظات العامة السابقة لا نجدها بنقائها الكامل عند الساميين المتمدنين والمستقرين ويلاحظ أن التحوير في المفاهيم والملاحظات السابقة، ترجع - كما نوهنا - إلى الوسط الذي اختارته جماعات الساميين موطناً لها. ولهذا فإن هذه المفاهيم العامة لم يبق منها إلا عناصر معينة تؤلف نوعاً من التفكير الخاص. إن هذه الملاحظات نجدها قليلة الظهور والعلنية وفي وادي الرافدين بشكل خاص.

ووادي الرافدين الواسع هو الذي يتحدد بالخليج العربي جنوباً وبالجبال شرقاً وشمالاً (حيث عيلام، وجبال زاخروس، وأرمينيا)، وغرباً بالصحراء السورية العربية. وكما قلنا في الصفحات السابقة فإن الساميين دخلوا هذا الوادي على دفعات وبمناسبات مختلفة واختاروا مناطق تجمعات سكنية لهم منذ عصر ما قبل التاريخ.

ومن المحتمل أن الدفعات الأولى من الساميين استقروا منذ عصر ما قبل التاريخ في شمال القسم الجنوبي من وادي الرافدين، أي في منطقة أكد، ومن هذه المنطقة تسربوا خلال السومريين وتمركزوا في المنطقة بعد ذلك ولم يتأخروا باللحاق بالمستوى الحضاري للسومريين حيث أخذوا من ثم بتطوير هذا التراث الحضاري كما لو أنه تراث خاص بهم.

هؤلاء الساميون الرحل أصبحوا يحيون حياة مدنية منظمة في وادي الرافدين: فكل مدينة ذات أهمية معينة أصبحت مركزاً وعاصمة لجزء من الأقسام الريفية ثم تطورت المدينة إلى إمارة مستقلة وأصبحت هذه الإمارة على الدوام في حالة نزاع وحرب مع ما يجاورها من الإمارات المماثلة لها ونتج عن ذلك تجمعات مكونة نوعاً من الإمبراطوريات الصغيرة.

وفي حوالي منتصف الألف الثالث ق.م، نجد المدينة السامية أكد تحوز بفضل الملك سرجون الأكدي المكان الأول في وادي الرافدين الجنوبي (الفترة الأكدية): وانتصرت على كل الإمارات في منطقة سومر وأكد وامتد بذلك نفوذ الساميين إلى مناطق أبعد كثيراً. وكان هذا أول عهدهم بالسيطرة والتوسع الذي امتد من عيلام حتى سورية (شرقاً ـ وغرباً) وشمالاً حتى أقسام آسيا الصغرى الشرقية.

إن قادة هذه الإمبراطورية الجديدة، هم بالطبع من الساميين. ولكن ثقافتهم كانت سومرية.

وبعد قرن ونصف من هذا التاريخ، نجد سيطرة الساميين تتضاءل أمام الغزو الكبير الذي جاءهم على يد أنصاف البرابرة من الجبال، من أطراف جبال زاخروس (كردستان). وحكم هؤلاء الكوثيون الذين خربوا البلاد وسيطروا على جزء كبير من هذه الإمبراطورية. ولكن ـ من حسن الحظ ـ نجد بعض المدن التي كانت متمتعة باستقلال ذاتي نسبياً تستمر بالازدهار. وهكذا كان الحال بالنسبة إلى مدينة أوما وأور ولكش (تحت حكم كَوديا).

لقد كان السومريون يستعدون من جديد للانتقام، وطرد الأجانب من بلادهم. وهذا ما حصل على يد ملك مدينة الوركاء (أوتوحيكال) الذي طرد الكوثيين في حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م. واستمرت عملية إخراج الأجانب من بلاد سومر حتى عام ٢٠٥٠ بعد أن حكموا حوالي القرن أو أكثر. ويعاد مجد الإمبراطورية الأكدية تحت سلطان عصر سومر الذهبي، ممثلاً بملوك سلالة أور الثالثة (عصر أور الثالثة)، وفي هذا العصر نجد أن ثقافة وادي الرافدين، وهي في فترة نضوجها الكامل، تصل إلى أبعاد جديدة أخرى أكثر بعداً من سيطرة الإمبراطورية الفعلية الجديدة.

وفي بداية الألف الثاني ق.م. يبدأ تهديد العموريين الساميين، وهم من البدو الرحل، وكان قسم منهم قد استوطن سورية وأقسام وادي الرافدين العليا المتاخمة للحدود الغربية لإمبراطورية السومريين الجديدة. ووصل هؤلاء إلى الحكم في مدينة ماري (تل الحريري) وفي مدينة أيسن وبعد ذلك في لارسا وكان ذلك في حوالي ٢٠٠٠ ق.م. ومن ثم نجحوا، بمؤامرة مدبرة مع العيلاميين من الشرق، بتدمير سلالة أور الثالثة مستمرين في لعبتهم وسيطرتهم طوال قرن من السنين. واستمر ذلك حتى قام أحدهم وهو (سومر ـ أبوم) بتأسيس السلالة البابلية، وكان ذلك في حوالي ١٩٥٠ ق.م. (عصر بابل الأول) وكان الملك السادس في هذه السلالة هو حمورابي الذي حكم من حوالي ١٨٥٠ ـ ١٨٠٥ ق.م.)[1] في مدينة بابل التي جعلها المدينة الأولى وجعل منها نواة لإمبراطورية قامت على حساب السومريين الذين اختفوا من المسرح السياسي إلى الأبد وأوصل حمورابي هؤلاء الساميين الجدد إلى سيادة كاملة على كل وادي الرافدين.

وهكذا عمل هؤلاء وأتباعهم من الساميين في هذا الوادي على إدامة وتطوير الوراثة الحضارية العريقة الشامخة التي بناها السومريون بصورة متكاملة منذ أكثر من ألف عام قبلهم.

وتستمر عجلة التاريخ لتعرض لنا من جديد على مسرح وادي الرافدين قوماً آخرين في حوالي عام ١٦٥٠ ق.م. هؤلاء هم الحثيون: أقوام هندية ـ أوربية وهم في سياق بناء وتطوير قوتهم السياسية حول عاصمتهم كبدوكيا، نراهم يندفعون جنوباً واصلين عاصمة الإمبراطورية البابلية، بابل، وينجحون في تحويلها إلى أنقاض.

ولكن تحت تهديد ووعيد مصر (في عصر سلالتها الثامنة عشرة) وقوتها الممتدة، في هذه الفترة حتى أقسام سورية الشمالية، فإن الحثيين ينسحبون إلى بلدهم من جديد تاركين بذلك الفرصة للبرابرة الجدد، أقوام جبال زاخروس وخلفاء الكونيين وهم الكاشيون لاحتلال وادي الرافدين، وقد فرض هؤلاء سلطانهم على الوادي حتى حوالي عام ١١٧٠ ق.م. (العصر الكاشي أو العصر البابلي الوسيط).

---

[1]- إن البحوث الحديثة في تاريخ وادي الرافدين تقدر فترة حكم الملك حمورابي بحوالي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م.). (المترجم)

وخلال سيطرة هؤلاء البرابرة الكاشيين على وادي الرافدين لم يقدموا شيئاً للحضارة، وظلت بابل في نوم طويل ولوقت طويل أيضاً ظل الساميون في جنوب وادي الرافدين على نفس الحالة.

وفي أواسط الألف الثاني ق.م. نجد مسرحاً آخر في الشمال الغربي من منطقة وادي الرافدين. فبينما كان الحثيون في آسيا الصغرى والحوريون - الميتانيون في منطقة حوض الخابور، كانت هناك مواقع حربية بين هؤلاء كلهم من جهة وضد الممالك الصغيرة في سورية - فلسطين التي كانت تابعة لفراعنة مصر (عصر العمارنة) من جهة أخرى، ونجد أن قوة سامية أخرى تثبت وجودها في شمال وادي الرافدين وهم الآشوريون، في تلك المنطقة التي ظهر أن الساميين استقروا فيها ربما قبل أن يستقر الساميون في مدينة أكد، وإن كان ساميو أكد بسطوا سيطرتهم عليهم في فترات متعاقبة، وكذلك كان الحال في عصر سلالة أور الثالثة وسلالة بابل الأولى. وقد ورث الساميون الآشوريون خلاصات حضارة وادي الرافدين الأسفل وأضافوا عليها الكثير وذلك بتأثيرات عميقة من الحوريين المحيطين بهم. ويدين الآشوريون لهؤلاء الحوريين ليس فقط في سحنتهم وتكوينهم الجسمي ولا في نفسيتهم القوية الحازمة، بل في نواحي التشريع والفنون التشكيلية. إن أخذ زمام الحكم الآشوري من قبل الأموري (أو العموري) شمشي - أداد الأول (حوالي ١٨٥٠ ق.م.) لا يضع نهاية للسيطرة الحورية على الآشوريين، فهي لم تنته إلا بعد نضال حربي عنيف مع الحثيين في عصر (سوبيلوليوما وَمورسيل الثاني) وقد غمر الآشوريين على إثر ذلك فجر جديد (العصر الآشوري المتوسط). ويصل الآشوريون إلى مدى أبعد في تطورهم واستقلالهم وسيطرتهم على زمام أمورهم ابتداء من زمن الملك الآشوري نوكيلتي - نتورتا الأول (١٢٥٥ - ١٢١٨ ق.م.) والملك آشور - دان الأول (١١٨٩ - ١١٥٤ ق.م.) الذي طرد الكاشيين من بابل ومد سيطرته إلى أقسام وادي الرافدين الأسفل. وانطلاقاً من هذا العهد صار الآشوريون هم ورثة سلالات أكد، وأور الثالثة، وبابل الأولى، وفي الحقيقة فإن الآشوريين لم يضيفوا الكثير من الجديد على مجموع حضارات هؤلاء الأخيرين، الذين بلوروها ونشروها إلى أماكن بعيدة، على أنهم حافظوا وصانوا وعالجوا هذا التراث خلال كل فترة سيطرتهم السياسية أي حوالي أكثر من خمسة قرون. بعد ذلك، وبعد شموخ الآشوريين في عصرهم الزاهر وقوتهم المتصاعدة - العصر الآشوري الحديث - أو عصر الملك الآشوري

سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) وخلفائه (الفترة السرجونية) فإن سلطان البابليين يعود من جديد بعد جمع شملهم ومهاجمة نينوى متخالفين مع الميديين، وهم أقوام من الشرق (الجنس الهندي الأوربي)، ونجح هؤلاء معاً في السيطرة على وادي الرافدين بعد قهر الآشوريين وإسقاطهم. وذلك في عام ٦١٢ ق.م.

وهنا نأتي إلى الإمبراطورية البابلية الجديدة (العصر البابلي الحديث) الذي لم يدم قرناً من الزمان، وخلاله لم يتوفر لهذه الإمبراطورية غير ملك قوي هو نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ - ٥٥٢ ق.م.) وبعده، فإن تأسيس مملكة الفرس في إيران على يد كورش عام ٥٥٥ ق.م. أوجب سحق هذه الإمبراطورية التي شمخت بسرعة، وتم له ذلك في عام ٥٣٩ ق.م. وبهذا فقد قضي على البابليين والساميين في المنطقة.

ومنذ هذا التاريخ لم يعد وادي الرافدين إلا إقليماً تابعاً للإمبراطورية الأخمينية (العصر الفارسي)، ثم لإمبراطورية الإسكندر الكبير. وبعد وفاة هذا الأخير في ٣٢٣ ق.م.. دخلت المنطقة في حكم السلوقيين (العصر السلوقي). وبعد قرنين أي حوالي ١٤٠ ق.م. يأتي دور البارثيين، وبعدهم الإمبراطور أنتيوشوس السابع الذي أمسك بزمام الوادي مدة قصيرة وفي عام ١٢٥ ق.م. قام فرات ملك البارثيين بتخريب وحرق بابل وبعدها لم تقم لبابل قائمة. وفي بدايات التاريخ لم ير فيها سترابون « إلا صحراء كبيرة »...

ديانة الساميين في وادي الرافدين

اقتبس الساميون منذ استيطانهم للقسم الجنوبي من هذه البلاد، وخلال كل غزواتهم المتتالية، حضارة السومريين القاطنين هناك وكذلك ديانتهم.

إن علامة الفصل الصارخة وتوقف الساميون عن هذا الاقتباس هو تمكنهم منذ العصر البابلي الأول في تثبيت لغتهم الأكدية بصورة نهائية ومتكاملة، وبنفس الوقت فهم بهذه الخطوة الجبارة ألغوا الاستعمال الشائع سابقاً للغة السومرية، واقتصروا في استخدام الأخيرة على الطقوس والشعائر الدينية - كما حصل للغة اللاتينية - واستمر هذا الوضع حتى نهاية عهدهم في وادي الرافدين، بعد خضوع الوادي للسلوقيين.

لقد كان ذوبان الساميين بالسومريين متكاملاً جداً. وتحليل ذلك بدقة صعب جداً أيضاً، ويرجع ذلك إلى الاختلاط المتتابع الناتج عن الغزوات المتعاظمة للساميين. وبهذا فمن المرفوض مبدئياً إدخال ديانة البابليين والآشوريين ضمن الديانات السامية، على الرغم من الاعتراف بوجود « سمة » سامية لا يمكن إنكارها في هاتين الديانتين الأخيرتين[1]. وعليه فإن الديانة البابلية لن تكون إلا ديانة سومرية مقتبسة من قبل سامیي وادي الرافدين.

إن كلمة « روح » والقوة التي تستدعيها داخلية بصورة خالصة، ولكن ترجمتها واقعياً تتفق بصورة أكثر أصالة مع كلمة « سمة » وباقتباس وتطبيق الديانة السومرية فإن الساميين ربما استطاعوا ترك صيغهم الدينية العتيقة المقتبسة من الحياة الصحراوية ومع ذلك فقد كان من الصعب عليهم نكران

---

[1]- انظر كتاب العلامة إدوارد دورم. الديانات البابلية والآشورية الطبعة الثانية ص ٤. (المؤلف)
. Dhorme. Les religions de Babylonie et d?As-syrie. Paris, 1949.

آلهتهم: لقد وصل هؤلاء أخيراً إلى خلط هذه الآلهة مع مشابهاتها عند السومريين. كذلك كان على الساميين نكران مفاهيمهم الخاصة بالألوهية وكذلك الخصائص المميزة بشعورهم الديني وقد تركوا مع ذلك، لحدّ ما مجالاً لتأثيرات المحيطين بهم أن تنفذ إليهم. ومن هذا الشعور الرئيسي الذي حمله الساميون تجاه ما هو مقدس، وبفاعليته طوروا المذهب الديني الذي اقتبسوه. فالديانة البابلية هي إذاً الديانة السومرية، منفوحة بروح واتجاهات عميقة الجدة هي سامية خالصة: وهذه هي ديانة الساميين بكل معنى الكلمة. ولو بقى السومريون وحافظوا على استعمالها حتى النهاية لتطورت هذه الديانة بشكل آخر كلياً.

على أن تمييز هذه العناصر الجديدة ليس باليسير. فيمكن بصعوبة تسمية المفهوم الجديد الخاص بالشعور بهيمنة الإله المطلقة، وكذلك الأهمية الدينية المتعلقة بعوالم الكواكب والنجوم، وهذه مفاهيم سامية (انظر ص ١٢ وما بعدها). وقد غطت على مراحل متطورة للديانة الخاصة بوادي الرافدين وكونت طابعها الخاص والنهائي كما سنسلمه في نهاية هذا البحث .

يلاحظ من جهة، أن هذه الديانة في أشكالها الخارجية استمرت بدون تغيير يذكر ولا « إصلاح » حتى عهد السلوقيين في العراق، وأن أي تحول مهم لم يحدث كحرف لمسيرتها التي افتتحت من قبل السومريين. كما نجد أن كهنة سلالة بابل الأولى، بسبب الارتباك السياسي، أعادوا تنظيم عالم الآلهة لصالح الهم القومي مردوخ.

أما بالنسبة للآشوريين وديانتهم فهي أصلاً بابلية فقد حاول هؤلاء بدورهم تبديل مردوخ بالهم الوطني آشور وجعله على رئاسة مجمع الآلهة. ولكن بسبب النجاح الضئيل لهذه العملية فإن كبار الآلهة القدماء لم يتبدلوا أبداً، ولم تتجاوز نتيجة العملية إعادة توزيع سيطرة الآلهة فحسب. وبقى مجمع الآلهة كما كان عند السومريين بعد أن طُعم بشخصيات جديدة وتسميات جديدة. أما الطقوس والتقاليد الدينية فلم يطرأ عليها أي تبدل. وكذلك بالنسبة إلى الخطوط العريضة لأساطيرهم واعتقاداتهم.

ونعود هنا إلى « التبدلات الجذرية » ونركز على الفترة منذ العهد البابلي الأول، فنلاحظ بأن هناك تأكيداً لسيطرة الآلهة المطلقة على عالم الأشياء وبصورة خاصة على عالم البشر. وأصبحت الآلهة ليس فقط قوى طبيعية بل

أخلاقيـة أيضـاً، ووضـع تحـت مسـؤوليتهم كـل مـا يتعلـق بالحيـاة الاجتماعيـة والخلقية. وقد اختفت طبيعتهم المرتبطة بالأرض وهي المميزة للديانة السومرية. إن العلاقات بين الساميين وبين عالم الكواكب تتيح المجال لفهمها تدريجياً كقوى كونية وعالمية مشرفة على انسجام سير العالم.

هـذه الخطـوط المهمـة هـي الخطـوط الرئيسـية للديانـة الخاصـة بـوادي الرافدين التـي نجحـت في طورهـا الأخـير وحـين بـدأ العصـر الـهيليني يتمثلـها ويتبناها، في نشر كنوزها على العالم كله، قبل أن تموت نهائياً.

الفصل الثالث

خطة البحث ومصادره

خطة البحث ومصادره

إن الذي يقوّم الدين هو بالدرجة الأولى الإيمان بالشعور الذي يوجد نظاماً فوقانياً للأشياء غير ممكن تبديله أبداً (المقدسات).

إن سرعة الإدراك في التوصل إلى الحقيقة في ناحية ما - والتي تتم في النفس بواسطة أو بأخرى، فإن مناسبات عديدة تستطيع تحريك وتحريض سرعة الإدراك أو البديهة هذه - وتستجلب قدسية عميقة وتعتبر هذه الخاصية بالشعور الديني الرئيسي الذي يمكن أن يتطور، إما على صورة من الخوف أو الرجفة، أو بانجذاب معين تجاه المقدس.

إن الخيال يشارك بعض المفاهيم التي بوساطتها يحاول رجل الدين تجسيد هذه القوة العجيبة،إن هذا الرأي مطروح على هذه الصورة بصورة دائمية.

إن البينات والحجج تستطيع كذلك تخليص وتصفية، وحتى ترتيب وتنسيق، هذه المعروضات الوهمية وبالأخير تكوّن « مذهباً لاهوتياً » ونظاماً دينياً.

ومن جهة أخرى فإن الشعور الديني المدفوع بالروحانيات والمعتقدات المحددة والموجهة أيضاً بالفكر نجد له معبراً فيما يمارس من طقوس خاصة بالعبادة.

إن ديانة ما تلخص بالصيغ المأخوذة من العناصر الثلاثة الرئيسية التالية وهذه العناصر متعلقة بعضها ببعض وهي: الشعور الديني، والفكر الديني، والعبادة أو الشعائر. لقد تمسك بهذه الصفة النقية على شكل تقليد عريق في القدم يعود إلى ما قبل التاريخ، ديانات من الجائز القول أنها كانت « بدائية » ويمكن أن تكون هذه الصفة أيضاً محددة لشخصية مؤسسة مثلاً، أو لشخصية دينية كبيرة أجبرت أعماله وقربه من الأشياء السماوية، وكذلك حدسه وتقييمه

للأشياء على جمع محيطين بشخصه وأصبح لهؤلاء المحيطين واجبات عليهم تنفيذها تجاهه.

ومع علمنا أن أي « مؤسس » لم يكن خالقاً للأشياء بكل معنى الكلمة، ذلك لأنه يعتمد على محيطه وما سبقه، وبذلك ينتهي القول في التاريخ هنا إلى أنه متمم لديانة ما « تاريخية ». ولكن المفهوم يختلف بالنسبة إلى ديانة (بدائية) حيث أنها، في هذه الحال، يعبر عن كونها وهمية وخيالية. فمن أي نقطة تبدأ هذه الديانة البدائية في الماضي العميق؟!

إن الديانة البابلية تعود في مفهومها الأول إلى القسم الثاني من هذا التفسير، فإنها مبينة على تقليد لمفاهيم السومريين وكذلك الساميين أيضاً. وهنا عمق زمني يتعدى الأزمنة التاريخية المعروفة. ولكن الذي يهمنا زمنياً، من هذه الناحية، هو بدايات الألف الثاني ق.م. وهي فترة الاستقرار والازدهار الأكيد لمجموعات الساميين وبهذا الخط لا يمكننا إلا ذكر الشروح، بل تتبع الحوادث والتطورات المتسلسلة من التكهنات، والحدس الأول، لمفاهيم ما هو مقدس،وما هو سماوي.

إن ساميي وادي الرافدين القديم، تخيلوا وأضافوا ما كان عند السومريين من هذه المفاهيم، أي المقدسات والأشياء السماوية والتي، منذ وقت طويل، كانت موزعة من العديد من الكائنات الحية. إذن لقد كان هؤلاء مشركين في هذه الفترة أي وثنيين.

إنه من الضروري التعريف بالشخوص المهمة التي قُدست من قبل الساميين، كل شخصية وصفاتها الخاصة الرئيسية التي تميزها (وهذا ما سيأتي بحثه في موضوع الفصل الرابع: مجمع الآلهة). إن بحث هذا الموضوع في فصل خاص سيؤثر بشكل ما على الفصل الخاص بالفكر الديني: حيث أن كل إله من الآلهة كان له شكل مستقل ثُبّت بالخيال. ولتقليص التشويش في البحث، والتقليل من جفافه المفروض، فإنني جنحت إلى ترتيب الآلهة البابلية الرئيسية حسب المجموعة العائلية، وهذا يؤدي إلى الانتقال مثلاً إلى مراجعة سطور فصل آخر. إن « المواد » السماوية عرفت كذلك وصار من الجائز تحليل المكونات الرئيسية لها وهكذا أصبح البابليون أمام مجسمات للشخوص المقدسة، وهذا ما سنراه بتفصيل في الفصل الخامس عن الشعور الديني.

وهكذا فمن الواجب التقرب من طريقة تفكير البابليين بصورة أعمق ومعرفة الأفكار التي كونوها لكل ما هو من أصول سماوية أو سماوي صرف (انظر الفصل السادس. دراسة علم السماء من الناحية الدينية Théologie du Divin) أو في علاقة ذلك مع العالم: الفكر الديني الخاص بالكون وذلك هو موضوع: (الفصل السابع)، أو في الصلة مع الإنسان: الفكر الديني عند الإنسان: (الفصل الثامن).

ومن ثم نأتي إلى معالجة كيفية خلق مفهوم تكنيكي لمفهوم اللاهوت أو الديانة، أي خلق مذهب منظم وصل إلى مطابقة ومخاطبة العقل بصورة كافية[1] لكل ما هو سماوي، وذلك من داخل الأشياء وخارجها. وكذلك كانت هناك حاجة إلى إبراز أشكال وهمية في معونة الإقناع هذا.

وبالأخير سيمكن إظهار كيفية التعبير عن الشعور الديني عند البابليين تجاه الإله. فالطقوس الدينية التي تترجم بأعمال كـ (تقديم القرابين)، وبالكلام كـ (الصلوات)، كان لها مظاهر مزدوجة: فالواحد من هذه الأعمال كان لتمجيد الآلهة وتعظيمها ولنشر خيرها، وهذا يُظهر خلواً غير ممكن تفاديه بمقاصد ذات نفع شخصي، بقدر ما يتمكن المخلص المتعبد من الاعتماد على هذه الشخوص الكبيرة والاعتراف بها: (طقوس العبادة، الفصل التاسع).

إن النفع الشخصي يتأتى بالدرجة الأولى، وهذا يفسر في أن ممارسة الصلوات واضحة الهدف، في الحصول على انطباع حسن لورع وتقوى الشخص.

---

[1]- إن مفهوم مطابقة العقل هنا ذو معنى واسع جداً: إن المقصود هنا هو طريقة المعرفة، لا بإدراك عقلي مثل إدراكنا اليوم، ولا يعني ذلك أيضاً مطابقة العقل فلسفياً، وهذا المفهوم لم يظهر في الغرب إلا في حوالي القرن الخامس ق.م. عند الإغريق أولاً، ولكن بوساطة الميثولوجي ما قبل الفلسفة، وهذا المفهوم طوره الإغريق قبل أن يتجسم في نظرية متكاملة ومدروسة. إن الساميين في وادي الرافدين، وقبلهم السومريون،لم يتخطوا مرحلة التحليلات السابقة هذه. بوساطة التشبيهات والخرافات. وعلينا أن نعترف أن الساميين طوروا هذه التشبيهات والخرافات، ونعرف أن ترسانة خرافاتهم المكونة غالبيتها من ميراث سومري، وتعبر بعض الأحيان عن أفكار عميقة جداً، وواسعة الأفق، ولكنها لا تظهر أبداً مطابقة للعقل تماماً. وعلينا لفهم الأفكار هذه، وللإحاطة بها بطرقنا الخاصة اليوم أن نتعمق فيها، وفي مظاهرها الواسعة. (المؤلف)

وهذا ما يمكن أن نطلق عليه العبادة أو الطقوس « المقدسة » (الفصل العاشر). إن في هذا اللفظ « المقدس » يحمل من المعاني أكثر غنى ودقة في المفاهيم الدينية المسيحية. وأنا هنا أستعين بالمفهوم دون أي تفكير بالمقارنة.

وقبل أن نخرج بنتيجة للحكم بالإجمال على الديانة البابلية، فإنه من المهم ذكر التطور النهائي، وما استفاد من ذلك الإغريق وخاصة في العصور الهيلينية وذلك في سبيل حصر قسم من التراث المشترك الذي هو الأصل في قسم من الحضارة الغربية: « انظر الفصل الحادي عشر » بقايا الديانة البابلية.

لقد ألمحت مسبقاً بأن تاريخنا، بكل معنى الكلمة، لديانة الساميين في وادي الرافدين، وتطورها بصورة كاملة، ليس من السهولة عمله وعرضه بعد، وبهذا فإن الدراسة الحالية المقطعة، لا نجدها مرتبة بفصول رئيسية، مقسمة حسب تتابع العصور، ومعالجة حسب الترتيب الزمني. وإنما هي فقط خطوط عريضة للتطور تكون واضحة قدر الإمكان.

المصادر

إن عدم إمكانية عمل تحليل تاريخي مفصل ومتسلسل ومتكامل، جعل البحث يأخذ هذه الصيغة، والسبب يرجع إلى ما هو متوفر عندنا فقط من مصادر خاصة بموضوع الديانة البابلية. إن هذه المصادر مكونة بالدرجة الأولى من الوثائق الخاصة بالمنطقة وهي عبارة عن نصوص مسمارية باللغتين السومرية والأكدية وقد درست هذه على نطاق واسع وبكثرة منذ ما يقرب من قرن، وعلى الرغم من ذلك، فإن كل هذه الوثائق تقريباً لا تزودنا إلا بما يختص بالديانة البابلية (من الوجهة الرسمية). وما يخصّ ممارستها فقط، ولا تزودنا أبداً عن مفهومها كديانة، ولا عن قواعدها وأقيستها.

كذلك ليس بحوزتنا حتى الآن أي نصوص تعليمية وتوضيحية خاصة بالدين، تساعد بصورة صريحة على توضيح المفاهيم الدينية هذه ككل، وكذلك الشعور الديني، والتطبيق الديني. وفي أبعد الاحتمال لم يتبادر إلى أذهان أدباء وادي الرافدين إنشاء مثل هذه المؤلفات التي كان من المتوقع وجودها بالنسبة لديانة ذات أسس تاريخية، فلا غرابة إذا لم نجد مثل هذه المؤلفات في ديانة ذات طابع وصيغ « بدائية ».

إننا مضطرون في هذه الحالة إلى معرفة مفاهيم وارتباطات الديانة البابلية هذه، وذلك بمراجعة نصوص مكتوبة كثيرة، وكل من هذه النصوص لا يعالج إلا مظاهر جزئية للديانة، وأكثر من هذا فإن هذه النصوص الوثائقية وخاصة منها ما هو ذو طابع ديني صريح، يصعب، وقد يستحيل ترتيبها، في توال زمني، والنفسية البابلية والآشورية المحافظة إلى درجة قاسية جداً هي السبب في ذلك وهي التي حملتهم على إعادة استنساخ كلمة بكلمة، نفس التراتيل الإنشادية، ونفس الروايات الأسطورية وتلك الخاصة بالطقوس الدينية التي كانت تستخدم

منذ ألف سنة أو أكثر. لقد استنسخت هذه المواضيع الخاصة بالديانة وغيرها أيضاً من المواضيع الكثيرة جداً من مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ ق.م.).

إن تطور الدراسة اللغوية للهجات اللغة الأكدية كافة، قد يسهل ترتيب كل النصوص الخاصة بالدين ترتيباً زمنياً. أما اليوم فهي لم تتجاوز حدود التمهيد.

إن النصوص التي نعرفها حول الديانة البابلية يمكن أن تنقسم إلى نوعين رئيسيين: مصادر مباشرة، وغير مباشرة.

١ ـ المصادر المباشرة:

أ ـ مجمع الآلهة:

لقد ثبت كهان وادي الرافدين قوائم طويلة بأسماء آلهتهم، وكانت هذه القوائم مرتبة وفق العوائل الإلهية، وحسب عظمة وقيمة هذه الآلهة، وألقابهم ونعوتهم. ويوجد من هذه الفهارس الإلهية من كل عصور وادي الرافدين حتى أوائل العصر السومري. فمن الألف الثالث ق.م توجد قوائم من مدينة فارة (شروباك)، ومن نيبور (نفر)، ومن عصر الآشوريين المتأخر (من مكتبة آشور بانيبال). وبالنسبة للآشوريين ليس من البساطة حتى الآن تثبيت الترتيب الزمني الدقيق للفهارس الخاصة بآلهتهم. وفي العهد البابلي القديم تظهر أسماء جديدة لآلهة سامية أو سومرية أصبحت سامية، (وهذا ما سيتوضح في الصفحات التالية)، وهذه الأسماء الجديدة لوحظ في تسمياتها الأسماء القديمة السومرية. إن أهم وأشهر قائمة بأسماء الآلهة هي الفهرس المعبدي المسمى آن: آنوم، وتذكر هذه التسمية في المقدمة وهي بداية النص.

ب . الشعور الديني:

وهذا يخص نصوص الصلوات، التراتيل أو الترانيم الدينية وكذلك مزامير التمجيد والتعظيم، نصوص الرثاء أو التوبة. وأغلب هذه الأدبيات الدينية مكرس لتلاوات رسمية. تعد على شكل غناء جماعي (Choral) مصحوبة بالموسيقا.

إن النصوص الخاصة بهذه النواحي عديدة جداً يعكس تنوعها واختلافها. وهي تتميز بإنشاء شعري منمق وفي الغالب بأسلوب إصلاحي مرسوم. ولقد نسخ العديد من هذه النصوص بصورة متشابهة. إن كمية معتبرة من هذه النصوص كتبت باللغة السومرية وتعود إلى عصر سلالة أور الثالثة، وأحدثها يعود إلى عصر السلوقيين.

ويعد العهد البابلي القديم اصطبغت هذه الوثائق بطابع وتقليد أكدي والأكدية نفسها (لهجة بابلية وهي هنا ذات طابع شعري خاص ميّال إلى الكلاسيكية، وهي تشبه في ذلك لغة الملاحم عند الإغريق).

ج . الإيديولوجية الدينية:

وهي بصورة خاصة (لاهوت Théologie) العالم والبشر وفيما يخص هذا البحث توجد نصوص من الأدبيات والمكتوبات الأسطورية ومنها البسيط والصغير ومنها مجموعات طويلة تناهز التكوين الملحمي. إن معظم الكتابات التي تخص الأسطورة آتية من العصر السومري ويظهر أنها من مبتكرات السومريين ولكن أكثرها قد أعيد ترتيبه بقوالب أكثر عمقاً من الناحية الفكرية منطلقاً من العهد البابلي.

ومنذ عهد سلالة أور الثالثة إلى العصر الآشوري الحديث أو المتأخر، حتى العصر السلوقي يتكاثر ما بحوزتنا من النصوص واجدين فيها ما هو من صلب موضوعنا هذا. وحتى بين سطور الأشعار الطويلة الأسطورية يصادف أن حروفاً قليلة ناقصة لمقاطع غير قليلة لا تزال تشغلنا وتصعب علينا فهم المقصد الدفين.

د . الطقوس:

هناك الكثير من الطقوس التي دخلت في أعمال الكهنة، وهي تهدف إلى تنسيق الاحتفالات الدينية، وذكر المسميات وبعض الأحيان فإن نصاً بأكمله للصلوات يتلى وينشد. وهناك إشارة لحركات وإشارات من الواجب عملها. وأخرى لاصطلاحات ترمز إلى مواد وأدوات ينص على وجوب استخدامها أثناء أداء هذه الطقوس أيضاً.

بعض الطقوس يجب أن تؤدى من قبل مجموعة، أو طبقة من المقدسين: مرتلين، من لهم صبغة سماوية، أو من لهم القدرة على طرد الأرواح الشريرة.

وتوجد نصوص تصف الاحتفال الخاص بمعابد أو مناسبات أو آلهة معينة. إن أغلب هذه « الأسفار الخاصة بالطقوس »، هي من العهد الآشوري الحديث والعصر السلوقي ومنها ما يعود إلى عهود أقدم (العهد البابلي القديم وحتى من عهد سلالة أور الثالثة) ولا ننسى من جهة أخرى الروح التقليدية المحافظة جداً لرجال الدين في وادي الرافدين، فإن ما نقل واستنسخ في العصور المتأخرة يكون بحد ذاته مجموعة كبيرة من كتابات ذات أصول قديمة.

أما بالنسبة إلى الطقوس المقدسة (السرية) والخاصة بطرد الأرواح الشريرة، والعرافة، ومعرفة الفأل، فتوجد لدينا من الأدبيات الكثير جداً ومن عصور مختلفة وهذه النصوص تساعدنا على تكوين فكرة واضحة عن هذا الموضوع.

يلاحظ أيضاً أن عناوين بعض الرقم الطينية الخاصة بموضوع ما، لا يتطابق مع محتوى الموضوع، فنجد مثلاً فهارس بأسماء الآلهة في نصوص خاصة بالصلوات وبصيغ مطولة وبعبارات بديعة تعبر عن الشعور الديني وترتل ضمن الطقوس كذلك نجد الحكايات الأسطورية ومؤلفات طرد الأرواح الشريرة، وأخرى تخص علم النجوم.

٢ ـ المصادر غير المباشرة:

وهي بالضبط هذه المواضيع المختلفة، والمرتبة في اختلافها، التي لا يمكن تصنيفها حسب مواضيعها بصورة ترضي العقل، حتى لو كانت مواضيع رئيسية. وهكذا نجد الديانة تتدخل في كل المواضيع في هذا العصر، بل وحتى ما نجده من مكتوبات الملوك التاريخية المحتوية على العديد من الروايات، والإيحاآت، والإيعازات، وفيما يخص تشييد المعابد، أو تقديم النذور إلى إله، بما يصاحبها من نعوت المديح والتمجيد والتي تنتهي غالباً بالطلب من الإله أن يدمر الذين يعصون أوامره.

إن تشريع قانون ما، أو مادة قانونية، غالباً ما يتكشف عن ظاهرة دينية القصد منها التقيد بالالتزام الاجتماعي. ونص إداري بسيط يجهزنا بفهرس

أسماء كل مجمع الآلهة لمدينة كاملة، أو تفاصيل القرابين من الحيوانات والخضر أو الأشياء الأخرى التي تقدم للآلهة.

إن بعض المصادر غير المباشرة تتكون من مجرد أسماء مجردة لأشخاص ومن المعروف أن الأسماء تظهر تلقائياً عند الساميين، وتحت صيغ مقاطع قصيرة أو صيغة تعجب، ومدار التسمية هو اسم الآلهة. ومثل ذلك نجده مثلاً في اسم أداد ـ دوري: « أداد هو سندي »! وفي اسم: اشمه ـ داكان والذي يعني « داكان استجاب »! إن أسماء كثيرة يمكن أن تكون مأخوذة من المسميات المتعلقة بصفات الآلهة السماوية وسلطانهم أو بعوائدهم الثمينة.

من الواجب أيضاً ذكر المصادر المأخوذة من الآثار الشاخصة إلى جانب مصادرنا من النصوص المكتوبة. إن نتائج التنقيبات الأثرية واسعة جداً في وادي الرافدين فمنذ حوالي القرن اكتشفت المعابد المتسلسلة الطبقات، والتماثيل المجسمة للآلهة، والأدوات المستخدمة في الطقوس، والاحتفالات الدينية، إضافة إلى المنحوتات البارزة. الكبيرة والصغيرة، الممثلة للآلهة والاحتفالات الدينية وثمة اعتناء في تزيين هذه المشاهد ذات المظهر الديني. هذا إلى جانب المشاهد المحفورة على أختام الحجر التي تستعمل مكان التواقيع الشخصية. كل هذه الآثار تكمل وثائقنا من النصوص المكتوبة التي تعمق فهمنا للديانة البابلية. ويجب هنا إعادة القول بأنها، أي الديانة البابلية، عُكست لنا على الشكل الرسمي فقط. ومصادرنا ما عدا ما ذكرناه من أسماء الأشخاص والمشاهد المنقوشة على الأختام الأسطوانية وبعض قطع الأساطير التي تفسر المشاهد المنقوشة على هذه الأختام، تعطينا مخرجاً مباشراً حول التكوين النفسي للأفراد ولا تعرفنا بالشخصيات الدينية الكبيرة التي تجسد المثال الديني لشعب ما، بالرغم من استطاعتنا الشك بوجود هذا التجسيد أحياناً.

الفصل الرابع

مجمع الآلهة

مجمع الآلهة

إن القائمة الطويلة البابلية التي تضم أسماء الآلهة، التي عثر عليها في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال تحوي تسلسل أكثر من ٢٥٠٠ اسم للآلهة. وفي البحوث التي قام بها الأب دايمل P. Deimel عام ١٩١٤ حول مجمع الآلهة توصل إلى تشخيص ٣٣٠٠ اسم وسجل تولكفست K. Tallqvist عام ١٩٣٨ ٢٤٠٠ إلهاً وذلك في كتابه tterepitheta Akkadische Go. ولا يزال في البحث متسع ومن المحتمل أن تزودنا الرقم الطينية المكتشفة حديثاً بأسماء أخرى للآلهة غير المعروفة بعد.

ولا يجب أن نخرج من هذا باستنتاج أن سكان وادي الرافدين القدماء عبدوا مرة واحدة كل هذه الآلهة، فعدد كبير من أسماء الآلهة هي نعوت وصفية تطلق على شخصية واحدة بقصد التمجيد، ومثل هذا في الخمسين اسماً للإله مردوخ وفي الصلوات المكونة للرقيم الطيني الأخير لأسطورة الخليقة. وأكثر من ذلك فإن البابليين ترجموا غالباً، أو ضاعفوا بتسمية أكدية، الأسماء السومرية للآلهة التي اقتبسوها. وهذا ما نجده في اسم الإله شمش (بالأكدية) والإله أوتو (بالسومرية) وهما اسمان لشخص واحد.

هناك أيضاً أعداد هائلة من الآلهة الخصوصية صدرت عن اختلافات ذاتية وعن التزايد المستمر لمجامع الآلهة المحلية القديمة ومن بينها أيضاً ما جلبه الساميون من أسماء يحتمل أنها مستمدة من مصادر أجنبية من الآلهة الخاصة بالكاشيين مثلاً.

من بين هذه الشخوص السماوية يوجد عدد من الجن، وأنصاف الآلهة، أو من الأبطال الذين أصبحوا آلهة فيما بعد وسيفرد باب في هذا المؤلف لبحثهم، ويكثر الصنف الآخر في العصر البابلي والآشوري بصورة خاصة.

إن حمورابي نفسه يفخر بذكر ما يخص ديانة مدن مختلفة من إمبراطوريته فيذكر حوالي العشرين من الآلهة ذكوراً وإناثاً: أداد، إيا، آنو، داكان، دامكال، ننونا، أنكي، أنليل، إنانا، عشتار، ماما، مردوخ، نركال، نينازو،نينتو، نينورتا، شمش، صاربانيت، سن، زابابا وغيرهم ... وسنبحث بتفصيل مناسب « الآلهة الكبيرة » فقط والتي كانت عبادتها مشتركة وعامة ومستمرة، ونذكر بعض الآلهة الثانوية والمحلية التي كانت عبادتها أقل شهرة ولمدة معينة.

إن غالبية هذه الآلهة ذات أصول سومرية. وباقتباس عبادة السومريين فإن عبادة سامي وادي الرافدين لم ينبذوا آلهتهم الخاصة ولكنهم خلطوا هذه الآلهة مع الآلهة المقاربة لها من مجمع الآلهة السومري. وربما خلطوا كل إله من آلهتهم بعدة آلهة سومرية مقاربة لها. وقد نتج عن ذلك أن حافظوا مرة على تسميات هذه الآلهة السومرية كما هو الحال بـ (زابابا). أو أنهم جعلوا الاسم سامياً مثل الإله آن السومري الذي أصبحت تسميته عندهم: آنو وردفوا في حالات أخرى الاسم السومري للآلهة بتسمية أخرى سومرية أيضاً (فالإله السومري - أنكي سمي إيا).

١ - آنو (في اللغة السومرية وعند السومريين يسمى آن ويعني « السماء ») وهو إله السماء، الإله الأعلى، اقتبسه الساميون وربما أدمجوه بإلههم الخاص وهو أل. وكان الساميون أكثر اهتماماً به من السومريين لما حظي به عندهم من مركز سماوي وبما منحوه من التفضيل والتعظيم فكان يدعى « آنو العظيم »، « أبو الآلهة » الذي يتصدر قائمة أسماء الآلهة. ولم تتوقف عبادته طوال كل تأريخ الديانة البابلية، حتى زمن السلوقيين، وبصورة خاصة في مدينة الوركاء حيث معبده المسمى معبد: اى - أن - نا (É. Anna) ويعني في السومرية « معبد السماء ».

إن شريكة آنو هي آنتو (صيغة مؤنثة أكدية لـ (آنو) ولقد سميت من قبل السومريين: آن مثل زوجها أو: كي، وتعني « الأرض » (يقارن بذلك الزوجان الإلهيان عند الإغريق: أورانوس وكيا.)

وقد شاركت آنتو زوجها آنو بصفاته، وكذلك الطقوس الخاصة به تقريباً وسرعان ما خلط الساميون عبادتها، وبعبادة شخص، إنانا وعشتار.

٢ - أنليل: ويعني باللغة السومرية: « سيد الريح العاصفة ».

إن هذا الإله قديم جداً اقتبسه الساميون في العصر الأكدي. ولولا عظمة وسيطرة مردوخ وقوته وخاصة في العصر البابلي القديم.(السلالة البابلية الأولى) لكان لعبادة أنليل شأن أعظم بالنسبة للساميين. ومجال عمل أنليل هو الأرض فهو الذي يسير البشر وقد نعت بالسيد ومنه اللقب المستعمل عند الساميين (« بيل : Bêl ») الذي يعني نفس المفهوم. إن أنليل هو الذي يقرر المصير، وهو الذي يراقب سير القانون ويعاقب المذنبين الذين يمسكهم مثل الطيور في « شبكته الكبيرة ». والوصف الأخير يعود، ربما، إلى تأثير قديم للسومريين. وأنليل يوجد عادة بمعية الآلهة آنو في رئاسة الآلهة. وكانت مدينة نيبور (نفر) مركز عبادة أنليل ويحمل معبده اسم: اى . كور (إيكور) (É. Kur) ويعني معبد الجبل أما شريكة حياته فكانت مرة الإلهة ننليل وهي تسمية مؤنثة سومرية لأنليل. ومرة، وبعد فترة زمنية، أصبحت شريكته الإلهة عشتار ومرة ننخور ساك، التي تعني في السومرية (سيدة الجبل).

٣ - إيا : (Éa). إن هذا الاسم السومري يعني « مقر الماء » ويظهر بأن اسمه منح من الساميين للإله الذي سماه السومريون انكي « سيد الأرض ». أما البابليون فقد خصصوا له مكاناً مرموقاً واعتبر من الآلهة الكبيرة وغالباً ما يذكر عندهم سوية مع آنو وأنليل. وقد حمل أيضاً لقب « أب » أو « ملك الآلهة » و « خالق العالم » و « سيد القدر ». أما مكان عبادته التقليدي فكان مدينة أريدو وسمي معبده اى . أبزا (É.abza) ويعني ذلك معبد الإبسو: هو المحيط المائي لكل الأرض. ذلك لأن إيا كان هو إله المياه والعناصر السائلة وبصفته هذه فهو الذي يتحكم بالطقوس، وفيها يلعب الماء دوراً كبيراً. إنه يعتبر أيضاً سيد التكنيك كله، والعالم كله، والحكمة كلها.

لقد عرف لهذا الإله زوجات عديدات: (دام. كال. نونا . Dam.Gal.nuuna) وتعني بالسومرية: « زوجة الأمير الكبيرة » وفضل البابليون تسميتها دامكينا تلخيصاً لـ : (Dam .Ki. anna): « زوجة الأرض والسماء » وسميت بالسومرية ماخ (Mah) وتعني: الرفيعة أو السامية وهذا الاسم ربما كان وصفاً لدامك النونا Damgalnunna وأعطى الساميون لماخ لقب بيليت - إيلي Bêlet-ilî: وتعني « سيدة الآلهة ». ونجد أخيراً من زوجاته ننكي وهو مؤنث سومري لأنكي.

٤ ـ عشتار: معنى هذا الاسم السامي غير معروف ويحتمل أن يعني آلهة نجمة الصباح وهي المسماة عند الإغريق وأحفادهم بـ فينوس ونجد. اشتارت اسماً لآلهة عند الساميين الغربيين بينما ينتشر اسم أتتار في القسم الجنوبي من الجزيرة العربية.

لا يعرف بالضبط ماذا تمثل الإلهة عشتار ويمكن حصر شخصيتها الإلهية في مزاج شرس حافظت عليه حتى النهاية. وكذلك في حبها وميلها الشهواني. وقد امتزجت عبادتها أخيراً بالإلهة السومرية إنانا أو إنينا أو نينا ... وهذه تسميات من الأصل القديم للاسم السومري: Nin. Anna « سيدة السماء » وهي زوجة الإله آنو في مدينة الوركاء والتي هي آلهة الحب أما تنصيبها آلهة كوكب فينوس فيستند إلى أصول سامية وليست سومرية.

عشتار إذن في الديانة البابلية تمثل شخصية خاصة ومثلاً رفيع الشأن بالنسبة لمذهب وفكرة التوحيد السومرية ـ السامية، وهي تجمع في شخصها صورتين كانتا في الأصل موزعة في ثلاثة صور. وقد أكد المختصون في أصول الديانات على صفة التوحيد لهذا الثلاثي وذلك بتبيان كون عشتار بنفس الوقت كوكب فينوس الذي يظهر بالأخص في المساء، وهي في هذه الحالة تصبح ابنة الإله آنو وآلهة الحب. وكوكب فينوس الذي يظهر في الفجر، وبهذه الحالة تصبح ابنة الإله سن، وهي بهذا تحمل لقب آلهة الحرب، ولكونها « سيدة الحب »، فإنها شفيعة اللذة وبصورة غير مباشرة الإخصاب.

إن عشتار تمثل « المرأة بكل معانيها وبهذا جمعت في لقبها وشخصيتها العديد من الآلهة، ولهذا السبب كرمت بعد آنو في مدينة الوركاء، وبدرجة أقل في غير الوركاء، عشتار على حقيقتها كانت مقربة من الرجال، كمنقذة ومحبوبة، ولكنها كانت رهيبة مع أعدائها باعتبارها آلهة الحرب. ولخاصيتها الأخيرة هذه فقد ألصقت بها نعوت عديدة أضافت عليها شيئاً من الرجولة منها: بطلة، سيدة الفرد ضد الآخر في المعارك (السلاح الأبيض) ».. وقد كرمت بصورة خاصة في آشور بلد المحاربين الصلاب الأشداء.

هناك تسمية أخرى لعشتار المنحرفة، أطلقت منذ عصر أكد وكل فترة الساميين القدماء في وادي الرافدين على الإلهة آنونيتو المستمد اسمها من السومرية A. nunna وتعني « ابنة الأمير ».

وهكذا تجسد الإلهة عشتار نموذجاً لشخصية عميقة وغنية ذابت فيها غالبية الآلهة القديمة التي لم يبق من أسمائها وأشكالها إلا تسميات ومظاهر لشخص عشتار. بالأخير، كل صفة ما في الأنوثة الإلهية من قوة تنسب إليها أيضاً. ومن هنا تستمد عشتار أهميتها الفريدة ومكانتها المرموقة عند الإله آنو وما أنيط به من صفات سامية، فقد لقبت أيضاً (سيدة الشعوب) و « حاكمة » السماء والأرض و (الأولى بين الآلهة) ...

٥ - الإله سن: إله القمر: بهذا سمّي من قبل البابليين كما أطلقوا علية الاسم السومري نانا وسمي أيضاً ششكي. واسم الإله سن قد يكون من الكلمة السومرية أنزو، Enzu التي تقرأ زوين Zuen ومنها زن، Zen وزين، Zin وسن،. Sin.

في عصر السومريين كان محل عبادة هذا الإله في مدينة أور. وفي عصر سلالة أور الثالثة انتشرت عبادته بعيداً نحو الغرب وبصورة خاصة في مدينة حران (في سورية)، وهناك شواهد على استمرار عبادته هناك حتى القرن السادس قبل الميلاد (مسلة نيراب).

لقد اهتم البابليون كثيراً بعبادة الإله سن، وصدف مرات عديدة أن مركزوا في شخصه كل السلطة السماوية وذلك بتنسيبه من قبلهم على أنه ابن ووارث الإله آنو أو أنليل. إن أهم لقب تميز به سن هو: « سيد العرش » حيث أظهر بشكل هلال القمر المقرن بقرنين: وبهذا الشكل فمن الإله سن يظهر الملوك ويستمدون سلطتهم.

أما زوجة سن فكانت الإلهة ننكال التي تعني في السومرية « السيدة الكبيرة» وقد تبعت ننكال زوجها إلى سورية أيضاً.

٦ - الإله شمش: واسم هذا الإله سامي ويعني (« شمس » وهو إله الشمس وأما ترجمة اسمه في السومرية (أتو Utu) فهو (ابن الإله سن). وهو أقل منه منزلة وقوة. إن شمش كان في أعين السومريين إلهاً للحرب أما الساميون فقد أكدوا صفته كمصدر لكل الضوء وميزوه بدوره الكبير في إعطاء (إهداء) الحياة وإدامتها.

وأهم ميزة أخرى للإله شمش في نظر الساميين كونه المسؤول عن إلقاء الضوء على أوجه النشاطات البشرية وإظهارها بنوره المنبعث منه، وهذا يجعله صاحب الحكم وإله العدالة والمنتقم من الظلم.

كانت مدينة سيبار ولارسا (سنكرة) من مراكز عبادته التقليدية أما معبده الخاص فيحمل اسم « إي . بابار: É. Babbar » ويعني : « معبد الشمس » ومما يذكر أن الإله شمش لم تبطل عبادته وتعظيمه أبداً. أما زوجته فكانت الإلهة إيا السومرية الأصل ولكنه وقع أخيراً تحت تأثير أنوثة عشتار، فصارت تذكر كزوجة له أيضاً.

٧ ـ الإله أداد: إن الصيغ المختلفة لتسمية هذا الإله تجيز اعتباره من أصل سامي ـ غربي: (آدو، آدي، آدا، خادو، دادا، هاداد ...).

والتسمية، هداد، معروفة جيداً، بين الجماعات السامية من الكنعانيين والآراميين، وقائمة أسماء الآلهة البابلية تذكر عبادته في منطقة (آمورو)، أي الغرب بالنسبة لوادي الرافدين، وعبد بصورة خاصة في مناطق حلب، ولقد شبه هذا الإله بآلهة غربية أيضاً مثل الإله « مير Mêr » والومر Ilumêr. ويستنتج من ذلك أن جلبه إلى وادي الرافدين كان قد تم على يد الساميين والعموريين أي الغربيين. لم يعرف الإله أداد بصيغه الخاصة والواضحة إلا منذ عهد سلالة بابل الأولى، ويظهر بأنه غطى بذلك على آلهة سومرية يكتب اسمها بالعلامة السومرية التي تشير إلى « الريح » IM وتلفظ: Ishkur، أشكور. ولهذه الإلهة صفات مشابهة لصفات الإله المذكور.

إن تبلور عبادة الإله تمت في زمن غزو العموريين لوادي الرافدين، وإن كان قد عبد أيضاً في العصر السومري كما عبده الآشوريون، ومن الجدير بالملاحظة أن أغلب المدن الكبيرة في وادي الرافدين أقامت معابد خاصة به.

إن أداد هو إله الزوابع والعواصف وإله كل الظواهر الجوية المهيبة والمفزعة، وهو بنفس الوقت سيد الأمطار وأمل الغلة الكثيرة، ومن أسمائه « سيد الثروة ». أما زوجة هذا الإله العجيب فهي الإلهة شالاش.

٨ ـ الإله نركال ـ إله الجحيم واسمه سومري الأصل: Né-unu-gal ويعني (سلطة المدينة الكبيرة) ويتضمن هذا المعنى إشارة إلى جهنم. لقد شبه بأحد

آلهة مرض الطاعون والوباء (إيرا « Irra ») وحمل نركال أيضاً اسم إيرا وعبد وقدس بتعظيم تحت هذا الاسم الأخير في مدينة كوثا.

وانتشرت عبادته في الغرب واستمرت إلى ما بعد ميلاد المسيح ويرد ذكر ذلك في مكتوبات مدينة تدمر.

يتميز نركال بصورة خاصة بالخوف والرهبة وهو مختص بملء مملكة جهنم بالبشر لقد كان كبير المريعين المفزعين، إله مرض السخونة إله الأمراض المميتة وإله المعارك الدموية المهلكة.

أما زوجته فهي إرش. كي. كال، Éresh. Ki. Gal ويعني اسمها باللغة السومرية (وصي أو حاكم المملكة الكبيرة وتسمية أخرى تشير إلى عالم جهنم. وقد حافظ الساميون على هذا الاسم وأضافوا له اسماً سامياً: الاتو Allatu ويقارن الاسم الأخير بالإلهة Allât) المعروفة جيداً في مجمع الآلهة في جنوب الجزيرة العربية .. مامي أو ماما تذكر أيضاً كزوجة ثانية للإله نركال.

٩ ـ الإله مردوخ: يحتمل أن يكون الاسم سومرياً ammar. utu ومعنى الاسم: « جاموس الشمس الصغير السن » أو « الشمس الحديثة السن .. » ولا تعرف أصول أعمق زمناً لهذا الإله، وقد أصبح بعد ذلك إله مدينة بابل، وتعود شهرته إلى الساميين من العصر البابلي القديم وحاولا بعد ذلك مشاركة عبادته واقتسام شهرته وعظمته بجعله إلهاً عالمياً. ويصرح حمورابي نفسه في بداية قانونه الشهير بأن « الإله آنو العظيم » ملك الآنوناكي وأنليل سيد السماء والأرض الحاكم بمصائر البشر هما من نسل الإله مردوخ الابن البكر للإله أنكي الوصي الرفيع « حرفياً » يمثل « عظمة أنليل ».

إننا نلاحظ بوضوح الطريقة الخاصة بالمفاهيم الدينية والتي تتجسم في إمكانية نجاح تبعية إله جديد من نسل الآلهة الرئيسية الكبيرة بدون الوقوع في أخطاء والتي قد تؤدي إلى محو هذه الآلهة الخيرة والتي قد تترك سلطتها إما بقرار شخصي منها كما حدث للإله آنو وأنليل أو تبعاً لقانون الوراثة كما حصل للإله أنكي.

وبعد ذلك فإن في شخص الإله مردوخ ذابت شخوص آلهة أخرى بنفس الطريقة السابقة، وأصبح كل من هذه الآلهة، أمام شخصه، ليس أكثر من تسمية

وصورة تشير بالنتيجة إلى سلطته، هو مردوخ. وبهذه الحالة فإنه كإله الزراعة: فهو ننورتا، وكإله المعارك فهو زابابا، وكإله الثروة والحياة فهو نابو، وكمبعث لضوء الليل فهو سن، وكإله العدالة فهو شمش، وكإله الأمطار فهو أداد ... ».

وفي أسطورة الخليقة المعنونة (إينوما إيليش ينسب إليه دور الخالق وسيد الكون السماوي والبشري وانتهت الأسطورة بتطويل مسهب يتكون من خمسين نعتاً سماوياً نسبت إليه أيضاً وهي تشرح وتفصل قوته وسلطته التي ليس لها من تشابه ونفاذ.)

إن هذه الخاصية والقابلية تطبق أيضاً على الإلهة عشتار ولكن بطريقة أقل ترتيباً وسرعة.

إن مكان تقديس وعبادة الإله مردوخ كان بالدرجة الأولى والرئيسية في المعبد المسمى:É. Sag. il. ويعني المعبد ذو الهيكل أو العتبة المرتفعة، الواقع في نفس مدينة بابل. ولكن بعد عصر السلالة البابلية الأولى، عبد مردوخ بتعظيم أيضاً في كل مكان في وادي الرافدين، حتى أن نفس الملوك الآشوريين، بعد غزوهم للعاصمة بابل، أكدوا بشدة على تقديسه وعبادته ووصل هذا التقديس ذروته في العهد البابلي الحديث ويستمر إلى ما بعد سقوط آخر إمبراطورية سامية في وادي الرافدين على يد الفرس، الذين أعادوا بناء معبد الـ Ésagil والتزموا بتطبيق الطقوس الخاصة بعبادة الإله مردوخ.

لقد كان أيضاً لهذا الإله الكبير زوجة وهي صاربانيت Sarpanit وتعني باللغة الأكدية: المفضضة (التي تلمع كالفضة).

١٠ - الإله نابو: تعني كلمة نابو في اللغة الأكدية « اللامع » أما أصل هذا الإله فهو غير معروف، وكل ما يعرف عنه ارتباطه بمدينة بورسيبا (برس نمرود) وفيها معبده الرئيس المسمى « É. Zida » ويعني بذلك (معبد الإخلاص). لقد نسب لهذا الإله كونه من نسل الإله مردوخ وذكر غالباً مع ذكر الأخير وشاركه بصورة جزئية ألقابه وعظمته. إن نابو هو الإله الخاص بالنساخين والكتبة وإله الحكمة كذلك ولصفته هذه بصورة خاصة (من بين بقية الآلهة) ينسب إليه كونه « صاحب ومسير المصائر » إن أهمية الإله نابو ظلت عظيمة في بلدان إمبراطورية البابليين وكذلك بالنسبة للآشوريين. وفي العصر البابلي الحديث تجددت الحماسة لعبادته وتقديسه كما حدث بالنسبة للإله مردوخ.

إن عقيلة الإله نابو هي الإلهة تشميتم (Tasmetum) وتعني في اللغة الكدية « العبقرية » وهي تمثل شخصية نادرة من الشخصيات التجزيدية التي أصبحت آلهة فيما بعد وأعطيت لهذه الشخصية صفة رمزية واضحة لتصبح زوجة للإله العلامة المتميز بهذه الخاصية.

هناك أيضاً آلهة سومرية وهي الإلهة: نانا Nanâ التي حافظوا على تسميتها وانتشرت عبادتها بتأثير الساميين إلى الغرب، ولقد قرنوا هذه الإلهة بالإله نابو، هذا عدا الشريكة الثالثة السومرية الأصل الملقبة بـ (نيسابا Nisaba)، والتي تعرف قديماً تحت اسم نيدابا Nidaba، وهي آلهة الحبوب ومنتجات الأرياف بالدرجة الأولى، كما أنها آلهة الكتابة والحكمة.

١١ ـ الإله آشور: وهو الإله الرئيس والأول عند الآشوريين ونسبة له سميت أول عاصمة لمملكته âl Assur. أي (مدينة آشور)، وسميت أيضاً مملكته .mât Assur أي (بلد ومملكة آشور) حتى بالنسبة لغير الآشوريين خارج منطقتهم. ومنذ زمن سلالة أور الثالثة نجد أن تقديس وعبادة هذا الإله كانت في تصاعد وازدياد، حيث أن كل المدن الواقعة بعد ذلك تحت حكم الآشوريين خصصت مكاناً لعبادته، ما عدا مستعمرات الآشوريين في آسيا الصغرى، حيث نجد أن اسم هذا الإله يذكر نادراً، ولم تذكر أي إشارة لعبادته وتقديسه في هذه المناطق على نطاق واسع.

إن اسم آشور هو بدون شك هو سامي الأصل ويقابله في اللغة السامية التعبير: a. usar وهذا التعبير لم يستخدم إلا في عصر الملك الآشوري ـ شمشي ـ أداد الأول المعاصر للملك البابلي حمورابي.

إن من الممكن ربط الإله آشور مع الملك الغربي Ashar ومنه Asherâ و Ashratu وإن الاسمين الأخيرين صيغتان مؤنثتان للاسم. إن الإله آشور كما يظهر كان أولاً الإله المحلي للمدينة التي حملت اسمه بعد ذلك ولقد تصاعدت عبادته وقدسيته بالدرجة الأولى إلى جانب الإله أنليل، بتصاعد قوة الآشوريين وتمركز حكمهم وخاصة منذ تبوء شمشي ـ أداد الأول للحكم (في حوالي ١٨٥٠ ق.م حيث ازدادت أهمية الإله آشور بنفس مستوى التصاعد السياسي والحضاري والعسكري للآشوريين).لقد نسبت للإله آشور الألقاب المنسوبة للإله أنليل وثم اختص هو فقط بعد ذلك نتيجة لازدياد أهميته. لقد أنيط بالإله آشور

الإلهة ننليل، كزوجة له وهي زوجة سلفه (أنليل) وأخذ له أيضاً اللقب السومري « الجبل الكبير » Kur. Gal، كما أن المعبد الذي بني للإله آشور سمي بنفس اسم معبد ـ الإله أنليل في نيبور (نفر): E .hur. sag. Kurkurra ويعني : « معبد الجبل للأقاليم الأجنبية ».

وفي العصر الذي سيطرت فيه قوة الآشوريين على كل وادي الرافدين فإنهم خلعوا على إلههم الوطني الامتيازات والألقاب الخارقة كالألقاب التي خلعها البابليون على إلههم الوطني مردوخ.

وعلى أيدي الآشوريين، أصبح اسم الإله آشور على رأس الآلهة الكبرى العظيمة المعروفة ونسبت إليه ألقابهم وسلطاتهم أيضاً، لقد حمل الإله آشور ألقاب « الإله العظيم »، و « أبو الآلهة » وخالق الكون[1] ...

وأصبح مسلّماً به لدى الآشوريين بأن الإله آشور، يتميز بكل القوة الإلهية وأما بقية الآلهة الأخرى فماهم سوى حاشية له.

لقد لقب الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م) الإله آشور: بـ « ملك العالم السماوي، بأجمعه، وخالق نفسه، وأبو الآلهة، ... ملك السماء والأرض، سيد كل الآلهة وبيده مصير الكون ... وضاعت بكل هذه المسميات طبيعة الإله آشور كإله وطني صميم.

١٢ ـ الإله آمورو ـ وسمي أيضاً: إيلو آمورو. وهذه التسمية تقليد لغوي أكدي للكلمة السومرية: مارتو ومعناها « غربي » والكلمتان السومرية والأكدية تعنيان: (إله من الغرب) ويقرب هذا الإله إلى الساميين العموريين.

ومعرفتنا بهذا الإله تعود إلى سلالة أور الثالثة وسلالة بابل الأولى ويظهر أنه فقد أهميته بعد الفترة الكاشية حيث لا نجد للإله آمورو أي ذكر إلا في بداية العصر البابلي الحديث.

لقد لقب هذا الإله في أول أمره: إله الجبال وربما لقب أيضاً: بـ « الجبل الكبير » الآتي من الغرب واللقب الأخير يفسر لقبه في السومرية: كور. كال،

---

[1]- إنه يقلب بذلك كما جاء في أسطورة الخليقة البابلية المذكورة سابقاً تحت اسم (إينوما إيليش). (المؤلف)

Kur. gal ويظهر أن شكله تلف ولم يميز بسهولة بعد ذلك ولهذا فقد شبه بالإله آنو، سن، أداد، وحتى بإله الخصب النباتي (تموز).

إن زوجة الإله آمورو تحمل كذلك اسماً سامياً: « آشراتو » التي تذكرنا بالإلهة « آشيرا » والإلهة آشراتو شخصية مهمة معروفة في مجمع الآلهة عند الساميين الغربيين وهؤلاء هم الذين أدخلوها معهم إلى وادي الرافدين منذ عهد سلالة أور الثالثة.

١٣ ـ الإله داكان[1]: لا يوجد أي تفسير لاسم هذا الإله باللغة السومرية ولا يعرف بالنسبة للساميين في وادي الرافدين، لقد ذكر عند الساميين الغربيين وخاصة عند الجماعات السامية الساكنة أطراف مدينة ماري (تل الحريري) ويظهر أن عبادته لعبت دوراً كبيراً في هذه المناطق حيث ذكر اسمه فيها منذ العصر الأكدي ويشابه دوره دور الإله آشور وأهميته عند الآشوريين فقد كان أيضاً إلهاً وطنياً وهو الذي « أعلن ملوكية الملك » وضمن له الانتصار على أعدائه. ومن هذه المناطق دخلت عبادة هذا الإله في بابل وفي سومر زمن سلالة أور الثالثة أيضاً بواسطة العموريين.

لقد عبد الآشوريون أنفسهم داكان الإله أيضاً في بدإيات الألف الثاني ق.م. وظل معظّماً في بلاد وادي الرافدين بأجمعها لمدة طويلة بعد ذلك. والملاحظة المهمة التي تتصل بعبادة داكان، أنها لم تكن على النطاق الرسمي وإنما كان تأثيرها شعبياً.

إن الطبيعة الأصلية للإله داكان هي أنه كان إلهاً للحصاد والحبوب بصورة عامة ويشابه في هذه الناحية الإله آشور أيضاً من حيث تعميم عبادته لخاصيته هذه ولكن على نطاق أضيق بكثير. لقد أدمجت شخصيته تلقائياً بآلهة أخرى مثل: أداد وأنليل أما زوجة داكان فهي الإلهة شالاش التي كانت أيضاً شريكة الإله أداد.

---

[1]- هو نفسه إله فلسطين ويذكر في التوراة في سفر القضاة، الإصحاح ٢٣ ، ١ : « أما أقطاب الفلسطينيين فاجتمعوا فرحين ليذبحوا ذبيحة عظيمة لإلههم داكون وقالوا قد دفع إلهنا إلى أيدينا شمشون عدونا. « كذلك يذكر في سفر الملوك الأول. الفصل الخامس، ٢ ـ ٧ » ثم أخذ الفلسطينيون تابوت الله وأدخلوه بيت داكون ووضعوه قرب داكون. » (المؤلف)

١٤ ـ الإله نينورتا: ويعني هذا الاسم في السومرية « إله الإعصار ».

ويتبين من اسمه بأن له علاقة باختصاصات الإله أنليل ولكنه إله آخر ذو اختصاص يتعلق بالاضطرابات الطقسية الشديدة ولقبوه بـ « الولد » تصغيراً لأنليل. لقد حافظ الساميون على عبادته وقتاً طويلاً وكان في نظرهم بالدرجة الرئيسية إلهاً للصيد والحرب ولاختصاصه هذا فقد ثمنه واحترمه الأشداء من الآشوريين.

أما زوجة هذا الإله « نينورتا » فهي بصورة اعتيادية، الإلهة كولا، وأحياناً الإلهة بابا، Baba.

١٥ ـ الإله تموز أو تموزو: وهذا الاسم هو صيغة أكدية مأخوذة من الكلمة السومرية: دومو ـ زي Dumu-zi وكان الاسم الكامل في الأصل: هو دومو. زي . آبزو Dumu-zi. Abzu الذي يعني: « الابن الأصيل للآبسو »[1].

إنه إله النبات وابن الإله إيا، Éa، ويحتمل أن يكون تموز شخصية بطولية أسطورية قديمة وصار إلهاً بعد ذلك. إن اسمه كان من ضمن أسماء ملّوك السلالة الأولى في الوركاء بعد الطوفان.

إنه رمز النبات والخضرة التي تموت وتختفي ثم تولد وتخضر ثانية. فهو في كل عام يموت وينزل إلى العالم السفلي، ومن ثم يعود ثانية إلى النور وتقام له بهذه المناسبة الاحتفالات الضخمة السنوية.

أما عبادته فهي بلا شك ذات أصول سومرية وانتشرت في مناطق سورية وفلسطين[2] وفينيقيا.

1- الآبسو: حرفياً يعني المحيط والمعنى العام هو المياه بصورة عامة. (المؤلف)

2- ... ثم أتي بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي هو جهة الشمال فإذا بنساء جالسات يبكين على تموز. « الكتاب المقدس (العهد القديم) نبوءة حزقيال (الفصل الثامن، ١٤). » (المؤلف)

وبعد ذلك فإن تموز هو أدونيس الذي انتشرت عبادته أخيراً في الغرب في العصر الهيليني[1] .

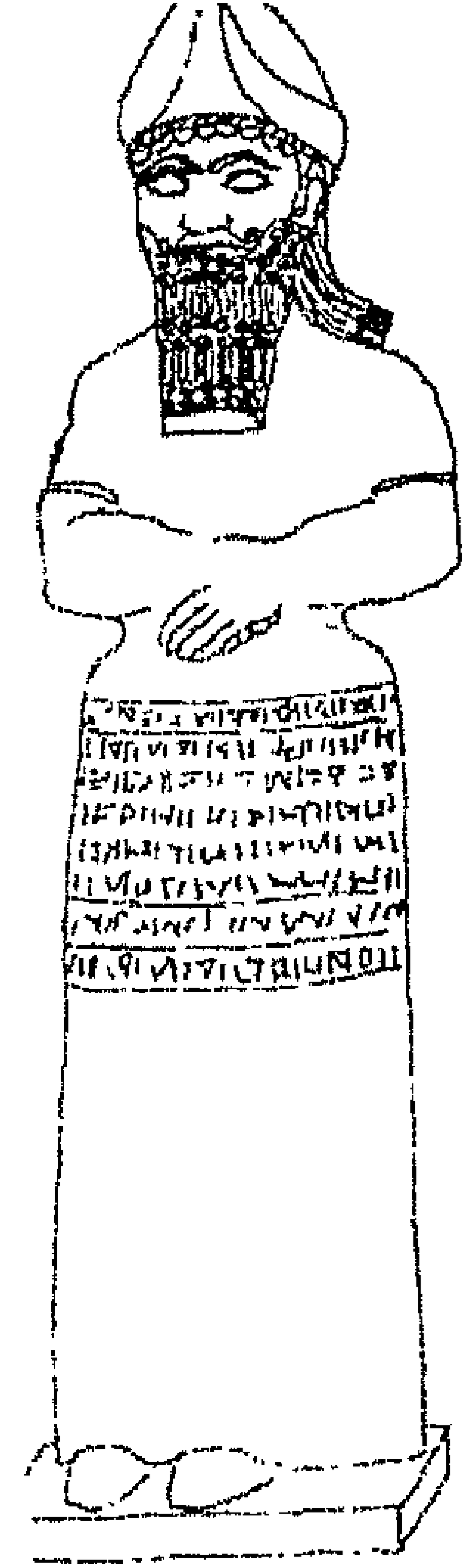
لقد كان للإله تموز أخت اسمها كشتين . آنا Geshtin. anna وتعني في السومرية « شجرة العنب السماوية » وخلطها الساميون بعد ذلك بالإلهة آشراتو.

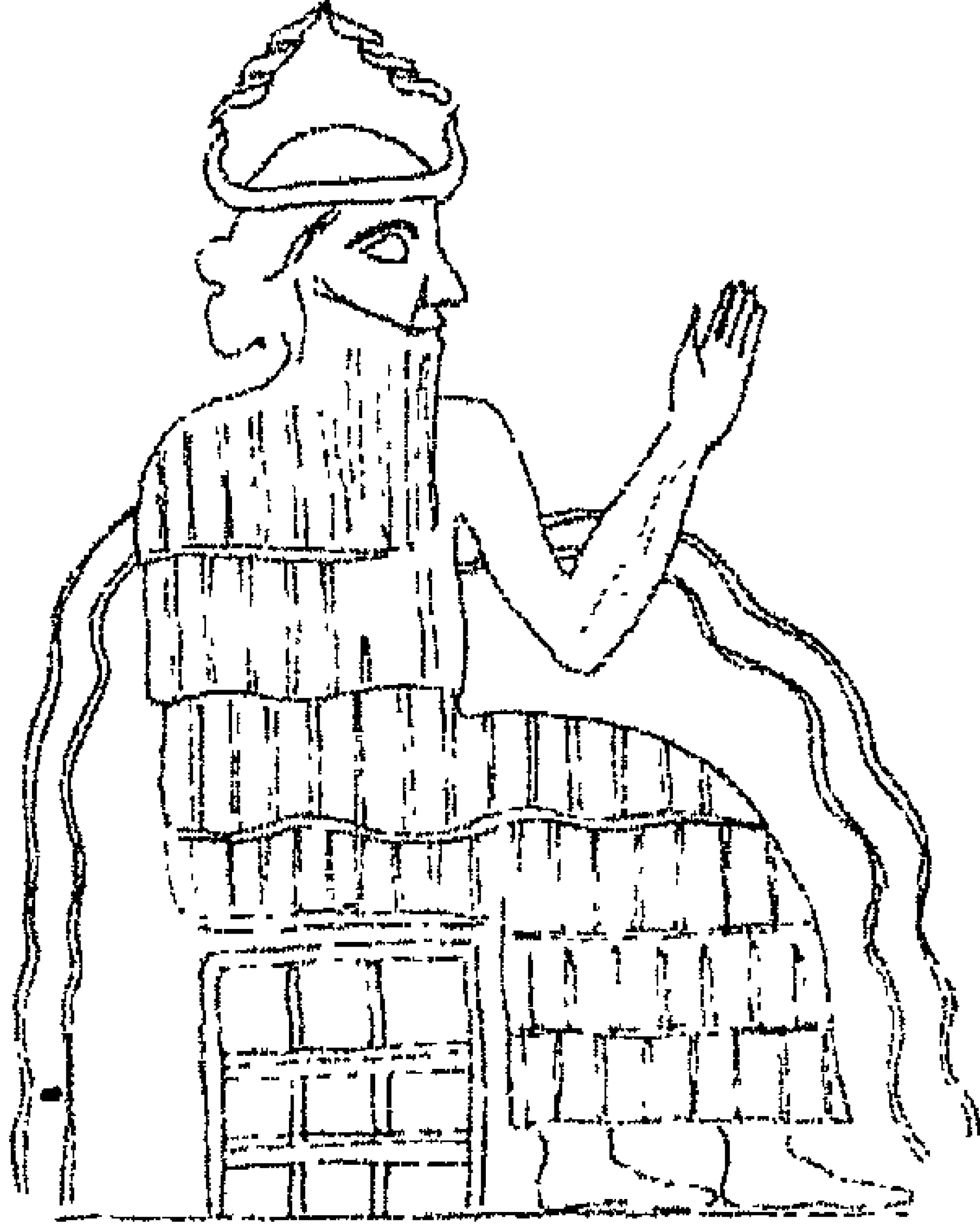
ومن الأسماء الثانوية للآلهة تذكر: زابابا، ننكيشزيدا، سوموكان، سوموكانا، وشوماليا (إن الإلهين الأخيرين توأمان، وأصلهما كاشي على ما يبدو).

ومن الآلهة الثانوية هناك الإلهات أيضاً وهن: بابا، كولا، ننكال (والاسم الأخير ربما مأخوذ من أنينا ـ عشتار) ... إلخ. وتوجد أيضاً تسميتان سومريتان هما: الـ آنوناكي والـ واكيكي وتعنيان مجموع الآلهة من الطبقة الثانية ويعتبر هؤلاء أولاداً خاضعين لكبير الآلهة آنوا ويهذا فكل الآلهة الثانوية تعرف على الأرض باسم الـ آنوناكي وفي السماء باسم الـ أكيكي.

---

[1]- إن المفهوم الديني لا ينفصل في الواقع عن الصلة القوية بالشخوص الأسطورية، وتأثر الإغريق بديانات الشرق: السومرية والبابلية والمصرية بصورة خاصة، استلزم تأثرهم أيضاً بأساطير هؤلاء. والشخصيات الأسطورية ذات الطابع الإلهي المقدس عاشت فعلاً محققة أعمالاً تعتبر من المعجزات بالنسبة للبشر العاديين .. ويعد موت بعض هذه الشخصيات ـ وهو حدث طبيعي ـ نجد بعثها من جديد، لتعزيز المفاهيم الدينية والتعليم والدروس الخاصة بالعبادة، ويكون هذا البعث رمزاً للحياة التي ترتبط غالباً بالأرض، ومن ذلك ما نعرفه من ارتباط الإله تموز، السومري الأصل، بعالم الزراعة وعودته إلى الحياة بعد موته في بداية كل ربيع وفي كل عام ليكون رمزاً للزراعة الجيدة والخضرة المتجددة. (المترجم)



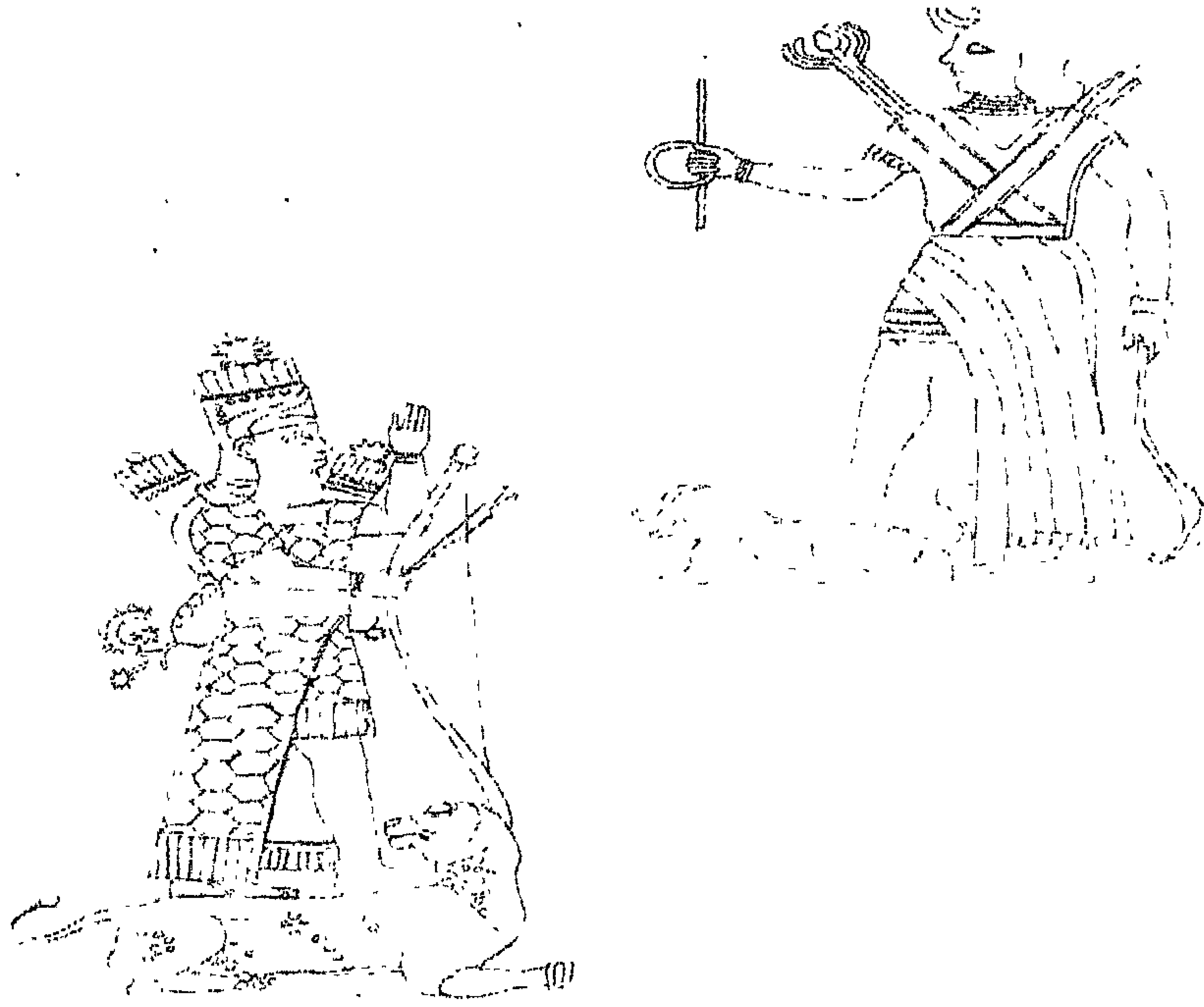


تمثال يمثل إلهاً وجد في معبد الإله نابو في مدينة نمرود (كالخو) إحدى عواصم الآشوريين ووجدت معه ثلاثة تماثيل أخرى تمثل آلهة ثانوية. التمثال هذا مهدى إلى الإله نابو من قبل حاكم المدينة وذلك تخليداً ولإدامة حياة ملك الآشوريين أداد نيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٤٦ ق.م) وأمه الملكة سامورامات (سمير أميس). إن الكتابة المسمارية التي يحملها التمثال تترجم كالآتي:

« ضع ثقتك في الإله نابو ولا تثق بأي إله آخر » التمثال محفوظ اليوم في المتحف البيرطاني.

يمثل هذا الشكل الإله إيا وهو جالس على كرسي يشبه « الطابورية »، تنبثق من أسفل كتفيه حزم الماء، والمعروف عن هذا الإله أن اسمه يعني في السومرية « مقر الماء » ومعبده المسمى أني. أبزا ويعني معبد الأبسو ويعني ذلك المحيط المائي لكل الأرض فهو إله المياه والعناصر السائلة.

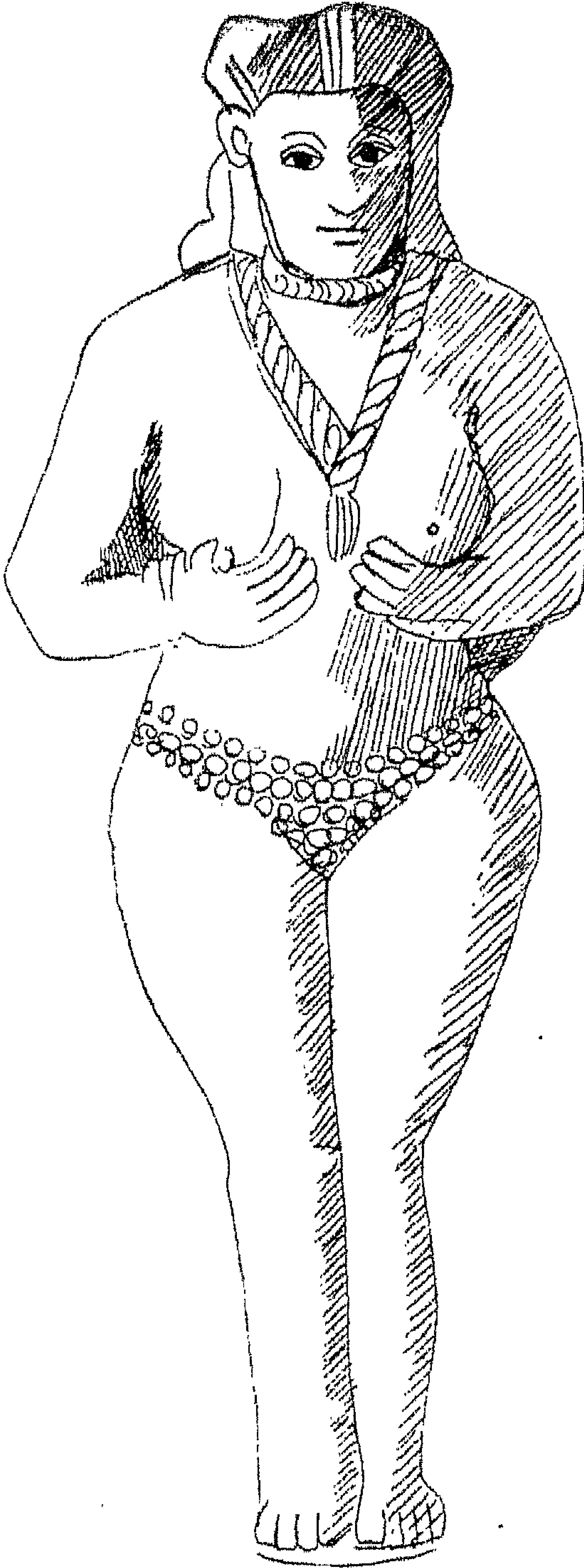
– الشكل يمثل جانباً من مشهد يظهر فيه هذا الإله وأمامه آلهة أخرى وهي تمسك بالطير « أنزو » سارق الوثائق الخاصة بالمصير. إن هذا المشهد محفور على ختم اسطواني محفوظ اليوم في متحف اللوفر ويعود إلى العصر الأكدي.



الإلهة عشتار في مشهدين من المشاهد الكثيرة التي تظهر فيها وهي تحمل هنا في المشهد الأول العدة الحربية التي تظهر من خلف كتفيها، وفي يدها اليسرى تمسك آلة حربية أخرى أما في يدها اليمنى فتمسك في العصا والحلقة رمز القوة والسلطان وهي تسلمها إلى الملك زمريلم ملك مدينة ماري عشتار آلهة الحرب وتبدو هنا وقدمها اليمنى فوق أسدها الذي يرمز لها ولقوتها، تضع على جسمها ثوباً أبيض مجمل باللون الأحمر وينحسر الثوب ليظهر رجلها اليمنى العارية. تزين رأسها بتاج مقرن باللونين الأبيض والأحمر.

الشكل هذا يمثل جزءاً من مشهد كبير بالألوان وجد مزيناً لإحدى قاعات قصر زمريلم في مدينة ماري (تل الحريري) ويعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر ق.م. وهو محفوظ اليوم في متحف اللوفر في باريس.

الشكل الثاني للآلهة عشتار آلهة الحرب مأخوذ من مشهد محفور على ختم اسطواني ويظهرها وهي تحمل عدة الحرب أيضاً وتمسك بيدها اليمنى القوس والسهام وتظهر جعب السهام من كتفيها. تقف عشتار هنا على أسدها أيضاً وتزين رأسها بتاج آخر مجمل بدوائر من المعدن الثمين كذلك يزين التاج زوج من القرون رمز الألوهية وفوق التاج نشاهد حلية على شكل نجمة نعرفها جيداً على ملابس الملك والإلهة وخاصة في العصر الآشوري. يعود هذا الختم إلى العصر الآشوري الحديث أو المتأخر وهو محفوظ اليوم في المتحف البريطاني.



لقد جسمت الإلهة عشتار أيضاً كآلهة للحب وهي في هذا أُظهرت دائماً عارية ولدينا نماذج كثيرة منها هذا المشهد المنحوت على قطعة من الطين وجدت في مدينة سوس ومحفوظة في متحف اللوفر في باريس.

A. U. Pope:

A Survey of Persian Art. Vol. VII. P. 74.



الإلهة ننكال المعروفة لدى سكان وادي الرافدين من الآلهة الثانوية ونجدها أيضاً مزينة الرأس بتاج بعدة أزواج من القرون وتجلس على كرسي عرفناه في مشاهد أخرى، يقف أمامها الملك أورنمو (مؤسس سلالة أور الثالثة) والمشهد هذا هو جزء من مسلة أورنمو الشهيرة والتي وجدت في مدينة أور وتعود إلى القرن الثاني والعشرين ق.م ومحفوظة اليوم في متحف فيلادفيا. نشاهد أمام الإلهة ننكال زينة نباتية في إناء معروف الشكل من منحوتات أخرى وتفصل هذه الزينة الإلهة عن الملك.

أما الشكل الآخر الممثل للجانب الآخر من المشهد المزين للمسلة، فهو شريك الإلهة ننكال والمسمى ننار وهو هنا يمسك بالعصا وبلفة من الحبال، إن وضعية هذا الإله وهو جالس على الكرسي تشابه إلى حد كبير الإله شمش في مسلة حمورابي. إن الإله ننار هنا يسلم هذه يسلم هذه العدة إلى الملك أورنمو الواقف في حضرته، يمسك الإله في يده اليسرى الفأس وهي من عدة البناء، والمعروف عن الملك أورنمو أنه كان بناء من الدرجة الأولى ولقد أوعز إليه من قبل الآلهة أن يبني من جديد مجد سومر.



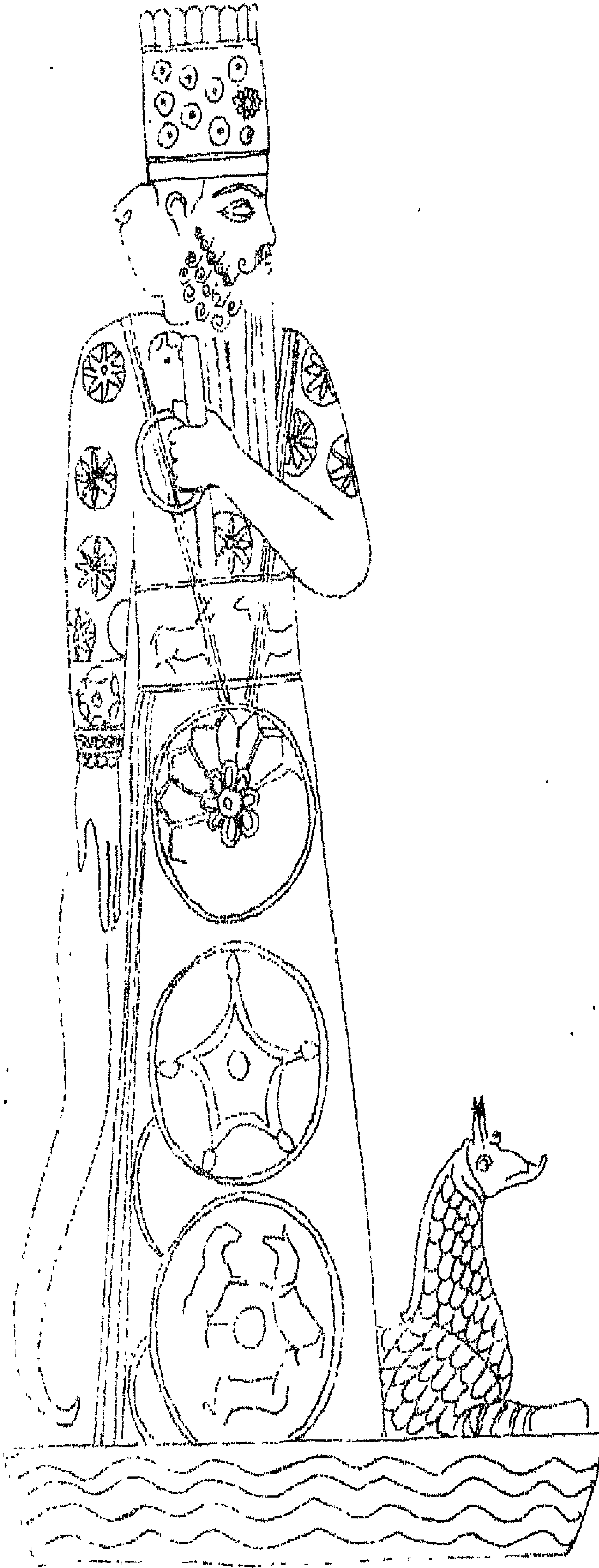


جانب من القسم العلوي لمسلة حمورابي المعروفة، يظهر هنا، الإله شمس (إله الشمس) وعلى رأسه يميز التاج المقرن، رمز الألوهية، وكذلك تظهر الحزم الضوئية المشعة منبعثة من كتفيه. ذلك لأن مصدر الضوء كله وهو المسؤول عن إلقاء الضوء على أوجه النشاطات البشرية وإظهارها بنوره المنبعث منه وهذا يجعله صاحب الحكم وإله العدالة ونصيراً لها والمنتقم من الظالمين. نراه هنا يمسك بيده اليمنى العصا والحلقة وهما رمزا القوة والسلطان وهو هنا يسلمها إلى الملك حمورابي في الطرف الآخر من المشهد.

- الإله يجلس على كرسي خاص معروف جيداً في مشاهد أخرى، على جسمه نرى ثوباً طويلاً ذو طيات ويترك الجزء العلوي من الجسم من جهته اليمنى عارياً. تزين جيد الإلهة قلادة ذات طيتين، أما قدماه العاريتان فإنها موضوعة على جزء منحوت بهيئة أنصاف الدائرة رمز المناطق المرتفعة والجبلية وترتبط هذه المناطق بعلو وسمو الإلهة عادة.

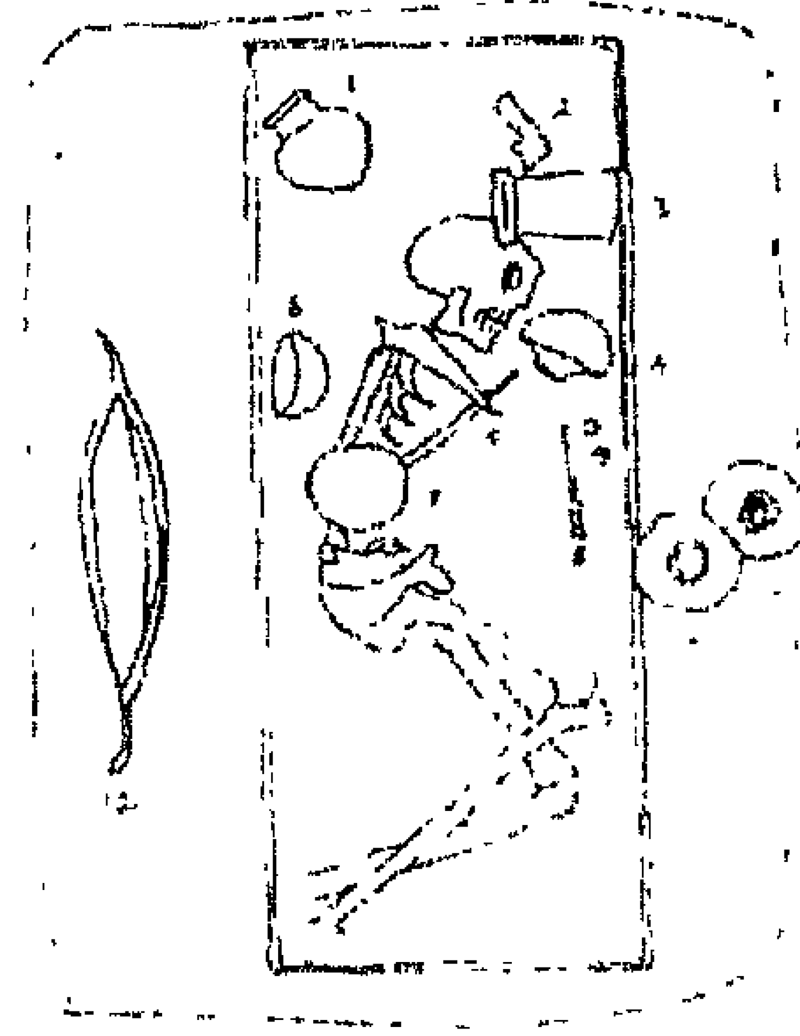
- الشكل مأخوذ من مسلة حمورابي المحفوظة اليوم في متحف اللوفر في باريس، والتي عثر عليها في مدينة سوس عاصمة العلاميين الكائنة في الجنوب الغربي من إيران اليوم.

لقد جسم الإله شمش في منحوتات متعددة أخرى ومنها المنحوتة المحفوظة اليوم في المتحف البريطاني والتي وجدت في مدينة نفر وتعود زمناً إلى القرن التاسع ق.م والمشهد في اللوحة هنا يرينا الإله شمش يمسك برموز باليد اليسرى، ويجلس على كرسي مزين بنحت يمثل حيوانين في وضعية متجانسة. إن الشكل هو جزء من منحوتة تمثل الإله في معبده الخاص في مدينة نفر وأمامه تقف الإلهة الثانوية.



يبدو في هذا الشكل الإله مردوخ واقفاً على ظهر حيوانه الرمزي المعروف « التنين » المسمى باللغة الأكدية (موشرشو) أي التنين المقرن، جسم الإله، كما يبدو هنا واضحاً، مغلف بثوب كبير مزين بقطع كبيرة من الذهب على شكل دوائر محلاة هي الأخرى بتكوينات مختلفة الأشكال والأحجام مؤداة بطريقة التحزيز أو الحفر على سطح هذه الدوائر، ومن المحتمل أيضاً أن تكون هذه الدوائر المزينة لثوب الإله معمولة بالتطريز أيضاً. يمسك الإله بيده اليسرى العصا والقرص رمز القوة والسلطة وعلى رأسه التاج المزين بقطع الذهب على شكل الدوائر الصغيرة وفي وسط التاج من الأمام نلاحظ النجمة ذات الحجم الأكبر من الأخرى تمييزاً للتاج بكونه تاج آلهة وملوك فقط. إن كل هذه الزينات لها علاقة مباشرة بمفاهيم سكان وادي الرافدين الدينية. الشكل هذا مأخوذ من مشهد من ختم أسطواني وجد في معبد الإيزاكيل في بابل وهو مهدى من قبل الملك البابلي مردوخ . زاكد . شوم.





تخطيط لموجودات أحد القبور من المقبرة الملكية في مدينة أور. الميت ملقى على جانبه بشكل يبدو فيه ضاماً يديه أمام صدره وعاكفاً رجليه قليلاً. وحوله توجد العدة الخاصة بالميت: (١، ٦، ١٥ / ١١) آنية من الفخار، (٢) فأس من البرونز، (٤) آنية من الحجر، (٣) سطل من النحاس، (٥) ختم أسطواني، (٩) نموذج لقارب من القار وضع ليسهل عملية عبور نهر العالم السفلي (حيث العالم الآخر) إن شيئاً ذا طابع أدبي شيق للعالم السفلي (عالم الأموات) يصفه أنكيدو في ملحمة كلكامش (اللوح السابع).

الإله أداد فوق حيوانه الرمزي: الثور. يبدو الإله مجسماً لعنف وقوة إله الريح والعواصف. والمعروف عن هذا الإله أنه إله الزوابع والعواصف وكل الظواهر الجوية المفزعة والمروعة.

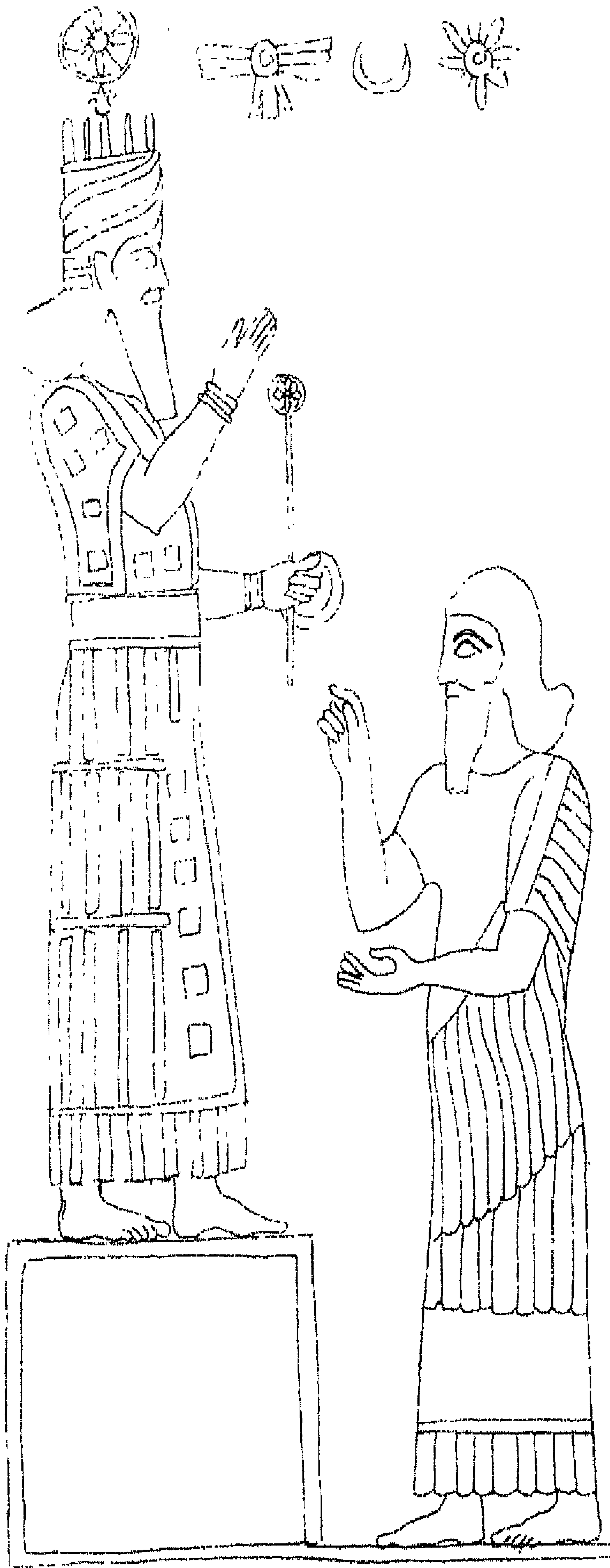
الشكل مأخوذ من مسلة مصنوعة من الحجر عثر عليها في قصر تكلات فيلاسر ملك الآشوريين الثالث في الفترة ما بين: (٦٤٦ . ٦٢٧ ق.م). وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر في باريس.



الإلـه آشـور (سيد مدينـو آشـور) ورئيـس مجمـع الآلهـة الآشـوري، وهـو الإلـه الرئيسي والأول عنـد الآشوريين ونسبة إليـه سـميت أول عاصمـة للمملكـة: مدينـة آشور.

يظهر الإله آشور هنا، على لوحة مـن الجبـس منحوتـة بـالنحت البـارز وهنـا يبدو نصفه إنسان ونصفه السفلي رمزاً لجبل ومنه تخرج أغصان نبات. إنه يمثل هنا أيضاً إله النبات ويمسك بكل يد غصناً ذا برعم جعلت وهي تلتهم من قبل عنزتين. وفي الأسفل، وعلى جانبي الإله، تظهر امرأتان أسطوريتان مثلتا بقامة قصيرة، وتبرز عيونهما المحدقة بقوة وتمسك كل واحدة منهما بإناء ينبثق منه الماء الفوار، الماء المقدس.

اللوح محفوظ اليوم في متحف برلين.



يبدو في هذا الشكل الممثل للإله آشور أو الإله شمس منفذاً بالألوان على قطعة من الحجر المزجج (محفوظ اليوم أيضاً في متحف برلين) وأمامه يظهر متعبد كاهن أو ملك آشوري على الأغلب.

تظهر في الشكل رموز آشورية المعروفة ومن بينها الدائرة المجنحة. يمسك الإله أيضاً الصولجان والحلقة رمز القوة والسلطان ويهم بتسليمها إلى الملك في وضعية يلمس منها الاحترام وروح التعبد.

الفصل الخامس

الشعور الديني

الشعور الديني

إن الكتابات القديمة التي تنقل إلينا بكل وضوح ودقة موقف البابليين المخلص والودود وذو الطابع الديني الأصيل تجاه المقدسات تتقسم، كما توضّح سابقاً، في أمور عديدة وهي الترنيمات والصلوات، وهنا نذكر بعض النبذ المأخوذة بغير تقصد والتي تتميز بالتنويع، والغاية من ذلك إيجاد نوع من العمق الدراسي.

١ . ترنيمة إلى آنو:

« أمير الآلهة،

الذي كلمته هي السلطة في مجمع الآلهة الكبار،

سيد التاج العظيم المزدحم ببهاء سائد، أنت الذي يمتطي الأعاصير الكبيرة

ترق أذن الـ « إكيكي »[1] لسماع حكمك العظيمة،

ولا تقترب منك الـ « آنوناكي »[2] بمجموعها إلا وهي مرتجفة على صوتك تخر كل الآلهة ساجدة.

مثل نبات القصب، تحت رحمة الريح العاصفة ...

٢ . ترنيمة إلى الإله شمش:

---

[1]- الآلهة السماوية. (المترجم)

[2]- الآلهة الأرضية. (المترجم)

يا سيدي:

أنت الذي تضيء الظلمات،

الذي ينير وجه الشمس

إله الرحمة

الذي يرد ويزيل الخضوع، ويحمي الضعيف

إن الآلهة الكبيرة تتلهف خلف ضيائك،

وكل الـ آنوناكي زائغة النظرات أمام وجهك

تقود وترشد كل الرجال كرجل واحد

ويرفعون رؤوسهم بكل رغبة،

ينظرون نحو نضارة لمعانك.

وعند ظهورك فإنهم ينبسطون ويفرحون،

أيها الضياء الذي ينير زوايا السماء البعيدة، والبعيدة جداً

يا رمز العالم السريع.

إن الشعوب العديدة تنعم بالنظر فيك بفرح وابتهاج ... «

٣. ترنيمة إلى سن:

« سيدنا، رئيس وسيد الآلهة،

الوحيد كبيراً على الأرض وفي السماء ...

أبو « نانا » ذات المملكة الكاملة

يا رئيس الآلهة،

يا أيها الصلب القوي الشكيمة، الجاموس ذو القرون الطويلة، ذو القوام البديع ...

يا أيتها الثمرة التي أولدتك أنت نفسك،

يا شخصية سامية عظيمة أنت، المدهش المعتبر،
لا يُشبع أبداً من كمالك
ثدي الأمومة الذي أوجد وأنشأ كل شيء ...
الشفوق، الأب المليئ بالطيبة
في يدك تمسك مصير كل العالم
أيها، السيد،
إن ألوهيتك تنبع متفجرة من مجد عظيم مثل السماء،
إنها فيحاء رحيبة مثل البحر ... »

٤ . ترنيمة إلى نركال:

« يا أيها القادر، أو الزاهي، ذرية نونافير[1]
أنت مغطى بتلألؤ، يا أيها، القوي جداً ليتني أعظمك،
حاملاً القرون الحادة، لابساً الضياء
يا أول مولود لـ كوتوشار[2]
جارس الحقل الذي كرسه كله للاستثمار،
أريد أن أمجد عظمتك،
سيد أقاصي الأرض،
المنتصر على كل المتمردين،
أنت الذي يلوي ويخضع المتكبرين،
يا أيها القوي الشديد الذي لا يتعب الذي يُفرح وينعش قلب بيل، Bél
إن يديك لقويتان وصدرك واسع

---

[1]- اسم آخر يشير إلى الإله أنليل. (المؤلف)
[2]- اسم إلهة وربما يشير إلى الاسم الأصلي للإلهة بيليت = إيلي (السابقة الذكر). (المؤلف)

يا أيها الكامل، الذي لا ميل له بين الآلهة

إنك تمسك بالإعصار الذي لا يرحم وتتحدى العدو ..

أسد ويحيطك بريق خطر،

وبسرعة تنتشر عظمتك المخيفة،

وتهرب كل آلهة المناطق إلى مخادعها،

ويغور الشرير وذو العمل غير الصالح في شقوق الأرض ... »

٥. ترنيمة إلى عشتار:

« احتفلوا بالآلهة، الأكثر عظمة بين الآلهة،

لتسمو، سيدة الشعوب، أكبر الآلهة بين آلهة الـ إكيكي ...

عشتار التي تغطي جسمها بالمرح، وتلبس الحب،

غنية باللذة، والابتهاج الجنسي (؟) وبلذة العشاق ...

من الذي يوازي عظمتها ؟! من ؟!

إن أوامرها لا تتزعزع، مهيبة، مليئة بالإشعاع ...

عشتار، مكانها مُميز بين بقية الآلهة،

إن أمرها هو السلطة.

إنها أكثر الآلهة، كلها ظرافة ولطافة

فهي ملكتهم. وهم يتقبلون أوامرها،

كلهم يسجدون أمامها

كلهم يستعيرون ضياءها،

تهابها الكائنات البشرية والحيوانية ... »

هذه إذن بعض الوثائق ذات النغمة العامة للصلوات البابلية وهي تعطينا حقيقة ذات وجهين:

أولاً: إضافة إلى ما نلمسه من أسلوب متعارف عليه، يوجد تكرار لصور كلامية أصبحت تشبه إلى حد ما الكليشة وبعضها نعوت وأوصاف تثير الضحك، وبالرغم من النغمة الرسمية التي نلمسها هنا وهناك فإنها تعبر عن شعور ديني أصيل. إن بعض التعابير تصلح أيضاً أن توضع ضمن ما نسميه: « ترانيم مقدسة ودينية جداً » لرودلف أوتو الذي يقول:

إن تعظيم الشيء المقدس لا يعود لسبب واحد، ولكنه في الحقيقة موضوع تبجيل واحترام متطرفٌ يدخل في أعماق القلب.

إن هذا الشعور الديني ذو الطابع والصبغة والأسلوب المهلع من الواجب تحديده وتوضيحه: فليس هناك مجازية صوفية في حقيقة هذا الشعور ولتوضيح ذلك نقول بأن الآلهة بظواهرها الشخصية ذات الطابع المزدوج تؤثر في النفوس لما امتازت به من عظمة وقوة، وسلطة إضافة إلى كونها مُهابة لأنها مخيفة ومرعبة: فأمامها « يُطوى الرأس مثل القصب تحت رحمة الريح العاصفة ».

ونجد مثالاً لذلك في فصل من ملحمة كلكامش فهو يشكو إلى صديقه أنكيدو قائلاً: « لم يمر أي إله ؟ فلماذا أشعر جسمي بدون قوة ؟ ».

إن حضور الآلهة يجلب الخوف والارتجاف وهذا الحضور ليس هو جانب البحث المهم جداً بالنسبة للموضوع ذلك لأنه لا يمثل المادة المطلوبة لتستولي على النفس وتملأ دواخل الإنسان بطريقة ما بالشعور الديني.

إن هذا الاضطراب « غير المركزي » يصطدم أكثر بتحليل النعوت المعطاة من قبل البابليين لآلهتهم: فالغالبية منها تدل على الخضوع الأعمى، والتضرع والإذعان والانقياد بسبب الخوف. كما نجد أيضاً أن هذه الآلهة غالباً ما تقرن مثلاً بظواهر تُخرب بعنف: « كإعصار » و « فيضان » و « زوابع » ... أو تقرن بحيوانات مخيفة أو بأخرى تمثل القوة: « الجاموس » ، « الأسد » ، « الفهد » ، « التنين » ... وقُرنت هذه الآلهة « بلمعانها » وكذلك « بقوتها » وهذه الأوصاف الخيرة نجدها مرات عديدة. كذلك توجد صفة « المخيف » التي تتميز بها أيضاً.

وهناك العديد من التسميات التي تُترجم بنفس الصيغ مثل:

سن ـ بيلاخ ومعناها: سن المخيف، وأليتا ـ نانا ومعناها: نانا اللامعة وهناك

أيضاً اسم الإله: مان ـ نو ـ كي ـ أداد ـ رابو ومعناه: القوى مثل أداد ؟ » ...

إن شعوراً بالخوف كهذا بدون شك ليس الشعور الوحيد تجاه هذه الآلهة من قبل البشر فإننا نلاقي غالباً، وخاصة في الترنيمات المترجمة سابقاً، نعوتاً يستشف منها سهولة وليونة إلهية حيث يظهر الإله أحياناً متميزاً بصفة الطيبة التي يمتاز بها البشر.

كما نجد أسماء النسب أو القرابة بين الآلهة[1]: مثل « أب » و « أم » و « أخ » و « خال »، ... وإلخ (ونجد أسماء بعضهم مثل: مردوخ ـ آبي، الذي يعني: مردوخ هو أبي . ونجد أيضاً النعوت التي تصف الشفقة والرحمة « كالطيب » .. و « المنجد »، و « الحامي » و « المنقذ » ومثالاً على ذلك، الأسماء الإلهية (بيليت ـ خاتين) التي تعني: بيليت التي تحمي، و « بيل ـ موشاليم ـ آبليشو والتي تعني: بيل يحمي طفله »، إن هذه الآلهة نجدها هنا موسومة بثقة حقيقية لذلك تلطف من صفة الخوف الموجود فيها.

وبالتمعن بصورة أعمق في دراسة هذه الآلهة الأخيرة، نلاحظ بروز وتفوق صفة الطيبة الموجودة عند الكائنات الإلهية الأخرى، وهذه الطيبة هي بالواقع مراعاة ومجاملة من قبل هذه الكائنات الإلهية ذات الشخصيات الكبيرة جداً وإن تلك الطيبة تتحول إلى قوة جاذبة وبالرغم من ذلك فإن تلك الطيبة لا تجعل دواخل المتعبد القلقة منتعشة ومستقرة.

إن هذه الآلهة هي قبل كل شيء « أسياد » belu ولها قابلية الظهور بمظهر الطيبة مع المحافظة دائماً على طبقتها الموسومة بالعظمة والمخيفة إن الآلهة بذلك تعيش في فلك خاص لا يمكن أن يشاركها فيه أي آله من قبل. إن هذه الصفة للآلهة بالرغم من أنها عرفت عند السومريين أولاً فإنها تعبر بالضبط عن الفكر الديني عند الساميين أيضاً.

ومع انتشار سيادة وعبادة الآلهة نجد العكس كذلك، على الرغم من عدم عثورنا على نص يوضح هذا المفهوم الأخير، فالميل للتقرب وحيازة رضا ما هو مقدس والتفتيش عنه كشيء شخصي، يُعبر عنه بكونه حالة صوفية، وكل ما يمكن تفسيره بسهولة تجاه هذا الموضوع يقودنا بالنتيجة إلى مفهوم الخوف و

---

[1]- حول الأصول السامية في استعمال مثل هذه النعوت ـ انظر ص ٩. (المؤلف)

« الشعور بالبعد عن الآلهة ». وهذا ما نجده في ترنيمة القول التالي :

« متضرعاً على الأرض أو واقفاً، أفتش عنك! »، فمن ملاحظة المتن الباحث في الابتهال والتضرع إلى (الإله سن) نفهم بصورة واضحة أن المتضرع هنا يريد القول: « إنني أطلب مساعدتك! ». وهذا ما لمسناه أيضاً في الترانيم المكرسة إلى الإله سن:

« لا يشبع أبداً من كمالك » وهنا يفهم معنى الإعجاب والمديح قبل الرغبة.

وهناك أسماء أخرى لآلهة من نوع إيا - زيتيشو ويعني هذا الاسم: « إيا هو نصنيبه[1] » وهذا النوع من الأسماء معبر جداً ويعطينا الكثير من التوضيح في مجال المفاهيم الخاصة بحماية الإله لمخلصه أو لعبده وذلك حسب مصلحة الأخير وفائدته.

نلاحظ كذلك أن أي نص من الكتابات البابلية حول موضوعنا لا ينكر وجود الآلهة بالنسبة للإنسان، وكما سنرى في الفصول القادمة، فإن الآلهة موجودة في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وفي المعابد وفي المياه وحتى في « اللمعان والبريق » ولكن الآلهة، ليست في قلب ولا في روح الإنسان. وهذا منطقي لأن هذه الآلهة ليست مختصة بالروح بكل معنى الكلمة.

أما الحقيقة الثانية المهمة: فإننا نستطيع أن نفهم من كل مخاطبة للبشر لإله ما، أن هذا الإله يصبح سامياً وعالياً وعظيماً بالنسبة إلى بقية الآلهة وينعت بأعظم الآلهة وأكبرها والأول بينها وهذه المبالغة لا ترجع فقط لاعتبار بعض الآلهة عظيمة مثل (آنو، أنليل، مردوخ، آشور، عشتار) ولكن آلهة أخرى تعظم بنفس النعوت، وهذه الآلهة حسب التقليد المعروف عندهم لها أهمية أقل جداً من الأولى مثل الآلهة: (أداد، شمش، سن، ننورتا ... إلخ).

إن الملك الآشوري أداد - نراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٢ ق.م) يذكر في كتاباته مرة ويقول: « ضع ثقتك في الإله نابو، ولا تثق بأي إله غيره ».

---

[1]- انظر أيضاً العهد القديم (التوراة) سفر المزامير. الإصحاح ١٦، ٥، وللمقارنة نجد نفس المفهوم أيضاً في الأسماء الإلهية التي وردت إلينا من مدينة ماري: داكن - آشريا الذي يعني: « داكان هو مكاني (أو ملجئي) » . (المؤلف)

كذلك نجد تطبيق نفس المفهوم في إعطاء الأسماء للأشخاص حيث نجد فيها العبارات: « إنه مثل الإله الفلاني »؟ (إنه كبير مثله؟ إنه يساويه؟) وهكذا في الاسم: مانو - شانين - شمش.

وبالنتيجة نستشف طريقة معينة، وإنسانية جداً في الوقت ذاته، لما يمكن أن نسميه بالحصول أو محاولة الحصول على شيء ما، أو طلب ما بطريقة الصلاة، صلاة الإلتماس وتتجسم هذه الطريقة بإطراء ومداهنة الإله الذي يُطلب منه الشيء وذلك لأجل إقناع النفس بموافقة هذا الإله والحصول على بركته. ولكن ليس هذا كل ما في الأمر فهناك أمور أخرى. فلا تعرف فيما إذا كان الشعور الديني يستلزم شخصية ملموسة مثلاً وربما تكفي المتعبد هنا لينخرط في وضعية معينة غامضة ذات نظام متعارف وذلك لأجل أن يدمج ذاته بمساعد ومعين أولاً ويعبر عن هذا بـ « التوحيد البدائي ». وهذا ليس كل الموضوع، فمن المعروف أن شعوراً كهذا يطمئن أكثر عندما يُجسم هذا « النظام المقدس للأشياء« بملموس فريد: فالإنسان يخاطب بصورة أسهل كائناً آخر، وحتى ولو كان هذا الكائن خفياً، من مخاطبته لقوة غامضة أو لتجمع غير محدد ويظهر بهذا أن ميلاً عميقاً للشعور الديني دفع البابليين غالباً إلى حصر كل القوة المقدسة في شخصية إلهية يخاطبونها بعد ذلك.

إن تقاليدهم الخاصة سمحت بعرض شخصيات إلهية بأعداد كبيرة ومفاهيمهم لا تعارض ذلك أبداً. ولكن عند تطبيق وممارسة عواطفهم الدينية فإن احترامهم وعبادتهم انصبت بصورة طبيعية وذابت بشخصية واحدة، وفي هذه الشخصية مركز البابليون عملياً من الناحية الدينية، كل ما هو معبود ومقدس.

إن نصوصاً عديدة توضح لنا هذه الظاهرة ودراستها تتعلق بعلم النفس الخاص بالدين وهذا العلم بالذات يساعدنا على فهم ما عندهم من « آلهة شخصية » وعندنا مثلاً:

« إل ريشي ويعني ذلك، كلمة بكلمة،: إله الرأس لأحد ما، ويظهر أن هذه الآلهة الخاصة بكل شخص لعبت دوراً كآلهة خاصة وهو نفس الدور الذي لعبته الآلهة العامة بالنسبة إلى العالم: « أنت إلهي، أنت سيدي، أنت حاكمي، أنت منقذي، أنت منتقمي ... » وهنا بالذات فإن أسماء النسب تلصق بالآلهة وربما يقصد معناها أيضاً: فكل واحد هو ابن آلهة. ونلمس من هذا أن تقليداً يتضمن

رغبة بإقناع النفس بوجود حامي خاص وغير طبيعي مثل (الملاك الحارس) في الفولكلور المسيحي وحتى أكثر من هذا، فالحامي يعتبر ضرورة حقيقية للشعور الديني وذلك لتلافي تشتيت قوته وتركيز نفسه كاملاً بعبادة شخصية وحيدة ليس على أساس مبدئي وإنما تطبيقي.

إن هذا الميل العاطفي والديني إلى نوع من المحاكاة هو بالواقع عبارة عن جهود ذات مفهوم تفكيري نشره المختصون بالدين من البابليين في سبيل تنظيم مجمع الآلهة بطريقة سلطنة ملوكية.

الفصل السادس

الفكر الديني
علم اللاهوت الخاص بالعبادة

الفكر الديني

علم اللاهوت الخاص بالعبادة

لقد صور وجسم السومريون آلهتهم على نفس صورة البشر، ومنذ فجر التاريخ في وادي الرافدين لم تصور الآلهة إلا بهيئة بشر، أما المشاهد للحيوانات المتعلقة بالموضوع فإن بعضها غريبة وغير مألوفة أو وحشية وهي متأخرة الظهور وعرضها ذو مفهوم رمزي.

أما بالنسبة للساميين، كما ذكرنا سابقاً، فإنهم أعطوا أشكالاً بشرية مقطعة لآلهتهم وقد تبنوا، بصورة عامة، مفهوم التشبيه الذي كان عند السومريين وحافظوا على هذا المفهوم كـ « نظام » رئيس وحاول علماء الدين البابليين بعد ذلك تخطي هذه الفكرة في محتواها الخاص بالتشخيص وبتنظيم العالم السماوي.

لقد شبهت أجسام الآلهة بأجسام البشر وعندنا دلائل أثرية كثيرة حول الموضوع، فهناك التماثيل الكثيرة، والمشاهد الأخرى، إضافة إلى العديد من النصوص الباحثة في الموضوع وبتفصيل دقيق. وكمثل على تلك النصوص المكتوبة الباحثة في « رأس » أو « بأعضاء » الآلهة وحتى جنسها فيما إذا كانت ذكوراً أو إناثاً، وميزوا وبرزوا، مثلنا، حتى مقدرتهم الجنسية: فالإله تموز « يضطجع مع » الإلهة عشتار، وتذكر النصوص « القوة الذكرية » (بمفهومها الفسلجي) للإله ننورة « الذي لا يناله الضعف أبداً » ومثلنا نحن البشر، فإن هذه الآلهة عليها

ملابس ومزينة، إنها تنام وتأكل (كما سنرى، بعد ذلك) فكل عبادتها إذاً تتركز على البرهان المقنع.

إن لهذه الآلهة « بيوتاً » تعيش فيها، وهي عادة في السماء وتظهر ذلك العلامة الصورية في الكتابة وهي عبارة عن نجمة بثمانية فروع حيث ترمز إلى عودة الكائن إلى عالم الآلهة[1]، ولكن هناك أيضاً الأرض والأبسو أو الماء وكذلك مناطق العالم السفلي والمعابد ... إلخ.

هذه الآلهة تستطيع ترك أماكن سكانها وترجع إليها ثانية.

« إن آلهة السماء تصعد من جديد وتعود إلى السماء، وآلهة الأرض تعود إلى الدخول في الأرض »، « وتكون العودة هذه بعد « تجوال هنا وهناك ».

وليس من الأكيد بالطبع، ولو تصورياً، أن تكون هذه الآلهة قد ميزت حسب صورها وأشكالها ولكن العجيب أن الواقعية التي أظهرت بها هذه الآلهة تبدو كأنها شخصاً (انظر ص ١١٨...).

لقد تبلور مفهوم التشبيه إلى حد تقريب أخطاء البشر من الآلهة وحتى الجهل: ففي رقية إلى الإله إيا، Ea تذكر أن الإله مردوخ جاهلاً: « ما فعل هذا الرجل « أجهل أنا ذلك، ولا أعرف كيف أشفيه من ذلك ». كذلك نجد في اللوح السادس من ملحمة كلكامش تعديداً قاسياً للمبالغة في العشق وفجور الآلهة عشتار ...

ومع كل هذا فتختلف الآلهة عن البشر. بالدرجة الأولى بتمييز خاص بكونها « آلهة » ilutu،... وهذه الخاصية لا يظهر أنها بقيت عليها كطبيعة تميزها كلياً عن طبيعة البشر ولكنها تميزت بقيمة ورفعة خاصة وسامية و « تحمل » هذه الصفات الأخيرة كرمز ذو تأثير معين وحتى الملابس الملوكية لها علاقة عميقة بذلك (وتقارن بـ « ملابس الآلهة » مثل الإله نابو).

---

[1]- إن علماء الآشوريات يترجمون هذه العلامة بصيغة « التعريف » التي تسبق أسماء الكلمات السماوية بكلمة: d أو il (بحروف كبيرة) ويضعونها في أعلى وعلى يسار الاسم صاحب العلاقة مثل: dAnu او il Anu إن الـ d تمثل إلى مختصر الكلمة السومرية التي تعني « إله » dingir وتلفظ: ذكر و il و ilu هي صيغة أكدية تعطى نفس المعنى. (المؤلف)

هذه الطبيعة الإلهية التي فيها قابلية الاتصال والاختلاط مع الشياطين ومع الأبطال الآلهة تشمل بصورة مبدئية كمالاً يفوق مستوى البشر: فالآلهة هي « معجزة وسامية »، « رفيعة المقام »، « كاملة » مليئة بالقوة وبقدرة غير طبيعية ورائعة. إن هذه الآلهة تحيط وتسيطر بنظرها على ما بين الأرض والسماء سوية، فالآلهة « أذكياء » و « حكماء » ويشاهدون الباطن، والمختبئ الذي لا يستطيع البشر رؤيته، إنهم « يعرفون المستقبل »، إنهم « يعرفون كل شيء ».

أما عن شجاعة وجمال وهيبة هذه الآلهة فإن النماذج من الترانيم التي ذكرنا نصوص بعضها سابقاً تشير إلى ذلك بصورة كافية.

إلى جانب دراسة علم الدين « المادي منه » بالنسبة للآلهة التي تظهر سهلة وغير معقدة فإن هناك ما يمكن أن نسميه بالطريقة المنوعة والتي تحدد هذه الآلهة وطبيعتها بمقارنتها مع البشر، وبما لا يمكن مقارنته مع البشر.

إن الخلود هو أول ما يميز هذه الآلهة:

« عندما خلقت الآلهة البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة .. »

(من ملحمة كلكامش. اللوح العاشر)

إن أسطورة أدابا (انظر ص ١٠١) تحوي أيضاً نفس الفكرة: الآلهة فقط لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف مدى لحياتها.

وما يروى عن « الآلهة الميتة » أو « المقتولة » لا يخلو من الصحة ولكن هذا يتعلق بأساطير تحتاج إلى تفسير وشرح لوجود هذه الآلهة وحضورها بصورة وقتية أو مستمرة في مملكة الأموات.

يظهر لنا أيضاً أن فكرة إظهار الخلود عُمل بها من قبل أيضاً وذلك بتلبيس الآلهة حياة ذات أمد غير محدد فهي طريقة للخلود حتى أنهم ولدوا من العدم (وهكذا بالنسبة للإله نركال، الذي لم يخرج من أحضان أية امرأة). أو أنهم تصوروا نوعاً من الخليقة سبق الخليقة المعروفة وجرى وذلك بخلق الإله لنفسه

(وعندنا الإله آشور « الذي كان قد خلق نفسه »). ونجد في ترنيمة الإله سن: « أنت الثمرة التي أولدتك أنت .. » إن هذا المفهوم هنا يخالف الإرادة الصريحة والواضحة في إبراز وتفسير المعجزة الإلهية.

إن هذه الإرادة التي تبرز في رمز آخر سلبي، أكثر عمقاً من الناحية الدينية، ويتجسم ذلك في الشعور بأن أي شيء خارجي مكوناً للمفهوم المقدس، يثبت نفسه بصورة أكثر عمقاً وتجسيداً: فكل ما هو سماوي غامض، والغموض يحيط بالآلهة فلا « يعرف أحد طريقها » أي أن المخطط الذي يخطط له الآلهة لا يوجد أي كائن يستطيع فهمه والأوامر المتعلقة به، إن لمعان الآلهة وتألقها في مأمن من البشر، فهي تسكن هذا الجو العجيب والذي لا يحتمل بالنسبة للذين يدعونه « المتألق » إن أسماء الإله (أو كما نقول نحن « جوهرهم ») « غير مفهوم ».

هذه الشروح على الرغم من كونها مختصرة ونادرة تعتبر منطقية جداً إذا أردنا حل الرموز والنفاذ إلى معرفة علم الدين واللاهوت البابلي ونظرتهم إلى المعبود السماوي وكذلك يدفعنا إلى عدم التوقف في حدود مفهوم التشبيه فقط والذي يكون بحد ذاته أساساً رئيساً في الموضوع.

ولا يمكن تلافي التشبيه في المجال المبني على الأسطورة وخاصة أن الإله المعبود انتخب ليكون صورة للإنسان وليس للحيوان وهنا نسأل من جديد هل أن هذه الصورة أو الهيئة تقنع الفكر البشري تماماً؟ ويمكن أن نقول أن ذلك صحيح بصورة عامة وخاصة بالنسبة للعامة وهذا ما نراه طبيعياً وذلك حتى في يومنا هذا، فإن الكثير من المسيحيين مثلاً لا يرون أبعد من ذلك بصورة عملية.

ولكن نرجع ونقول هل أنه من المعقول وعلى الرغم من وجود عقليات معينة يعتمد عليها علم الدين ومع وجود ما نعرفه عن حكماء بابل ووجود أعمدة من المفكرين الذين أثبتوا بطريقة علمية المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية قبل أكثر من ألفي عام من نظرية ديوفانت الإغريقي، البابليون الذين هم أول من بحث في علوم الفلك وعلوم الطب منذ حوالي أكثر من ألف عام قبل الميلاد فهل من المعقول أن يكون هؤلاء مقتنعين بالمفاهيم التي حددت بالنسبة إلى ما هو سماوي ومعبود بواسطة التشبيه والشرك؟ إن العكس صحيح فهؤلاء كانوا

يتحسسون حقيقة ذات مستوى أعمق من ذلك وبدون أن يسجنوا أفكارهم في المدار الذي صوره تقليدهم العام بشكل تلقائي.

إن الإصرار والتشديد على تعميم غموضٍ ما هو سماوي أسلم به العديد من البابليين.

وهناك تأكيد على هذا الميل العميق والذي يبرز لنا أيضاً بواسطة الرمزية ويظهر بأن البابليين اتجهوا أكثر فأكثر إلى تجسيم الآلهة بهيئات بشرية وإظهار ذلك بأشكال رمزية.

لقد كان ذلك أول الأمر على شكل أشياء وحيوانات لها علاقة ما، ظاهرة أو حسية، مع الآلهة وهذه الأشياء والحيوانات تنوب عن الأخيرة.

إن هذه العملية أو الظاهرة معروفة على الأختام الاسطوانية والنصب التذكارية الأثرية المسماة كودورو وخاصة من العصر البابلي الوسيط والحديث، إن هذه النصب هي عبارة عن مسلات صغيرة منقوشة وعملها هو بمثابة وثيقة مسجلة ومكملة بمشاهد تمثل الآلهة التي تؤيد وتشهد على محتوياتها. نرى فيها: تاجاً مقرناً موضوعاً على عرش يرمز للإله آنو أو انليل، نشاهد أيضاً صولجاناً برأس على شكل رأس كبش رامزاً إلى الإله إيا، وهناك أيضاً شكلاً على هيئة هلال يرمز إلى الإله سن، ثم دائرة على شكل شمس وهي هنا ترمز إلى الإله شمش، ثم ترى شكل نجمة ترمز لعشتار، وفأساً كبيراً يرمز إلى مردوخ والعاصفة ترمز إلى أداد، والكلب يشير إلى كولا، والضوء ربما يشير إلى الإلهة نوسكا. إن فنوناً من هذا النوع الذي يدور في الرجوع إلى الرمز باختصار الأشياء وإبراز عناصر ذات طابع جمالي، معروف لدى شعوب حضارات كثيرة أخذت به على نطاق واسع.

بالطبع إننا لا نقف عند هذا الحد في إثبات وجود ما نسميه « علم الدين الرمزي » عند البابليين ذلك أن المتن الفكري لهذا العلم يستخدم الرموز المشيرة للتماثيل الإلهية في المعبد، أو في أماكن أخرى، حيث يظهر أنها بررت الرأي في وجود شيء آخر إلى جانب هذه الجمادات المادية وحتى إلى أبعد من ذلك أيضاً: وهو الشعور بعدم كفاية الملامح البشرية في إظهار أشكال الآلهة بالرغم من عدم إمكانية تحديدها بصورة كلية وكاملة ويُقتصر على إظهار إشارات بسيطة لقوة الآلهة وفاعليتها.

لقد نظمت الخطة بعد ذلك، وبصورة خاصة في تأويل بعض الطقوس السرية حيث أن المواد والأدوات المستخدمة فيها كانت تُفسر بظواهر غريبة على كونها تمثل أحد الآلهة أو إحدى ظواهره.

إن حقلاً آخراً من الرموز الإلهية نلمسه بصورة أعمق هذه المرة ويخص هذا المجالات العلمية العالية جداً في مجال العلوم الرياضية والفلك والتي كشفت بنفس الوقت عن عبقرية البابليين في هذا الباب: لدينا مثلاً رقيماً طينياً ذا ترتيب خاص، حيث وضع أمام اسم كل إله رقماً حسابياً يمثله ويرمز إليه كعلامة في الكتابة: فالإله آنو مثلاً مُيز بالرقم ٦٠ (عدد كامل في النظام الستيني في وادي الرافدين القديم)، والإله إنليل مُيز بالرقم ٥٠، والإله إيا بالرقم ٤٠، وسن بالرقم ٣٠[1]، وشمش بالرقم ٢٠، أداد بالرقم ٦ وإلخ ...

عن الترتيب الواضح أعلاه في تقليل العدد راجع أيضاً إلى التدرج في الأهمية لهذه الشخوص الإلهية. أما الأدبيات الباحثة في بدإيات هذا التقسيم فإنها لا تتوفر لدينا إلا على جزء بسيط جداً ونعرف جيداً أن حكماء بابل طوروا نظاماً خاصاً بهذا الموضوع، ويمتاز بأصول سومرية، (وهذا نجده مضبوطاً وأكيداً في حالات قليلة جداً وخاصة ما يتعلق في المعابد). فقد ألصق هؤلاء العظمة الخارقة للآلهة بالنسبة للبشر بصور خاصة بهم. بمظاهر أو مدارك تجريدية جداً والأرقام والأعداد هنا لا يساء الظن فيها لتصوير الآلهة إذ أنها تخدم بدرجة تأثيرية أكثر عمقاً كمدلولات ذات صيغ رمزية أكثر منها إلى الأشكال المادية المجسمة للآلهة.

ونلمس أبعد من ذلك أيضاً قلق علماء الدين عند البابليين منذ عصورهم الأولى إلى استخدام نظام آخر لتصوير وتجسيم الآلهة، بصورة أعمق وأكثر تأثيراً، بنظرهم، من الأنظمة والخطط المذكورة سابقاً وتكمن هذه الخطة الأخرى في النجوم، إذ تذكر أسطورة الخليقة (اللوح الخامس): (بأن النجوم هي صور الآلهة). وهي رموزها كذلك. إن أسياد البابليين الذين لم ينفكوا أبداً عن ملاحظة النجوم، اكتشفوا استقراء واختبار ما هو خاص بالتنجيم قبل أن

---

[1]- بالنسبة للرقم ٣٠ لم يكن مستخدماً أبداً من قبل زمن حمورابي للإشارة إلى الإله سن وهذه وثيقة عن كون ذلك من إبداعات الساميين في هذا المجال، استخدم هذا الرقم بعد ذلك بصورة واسعة في العصر الكاشي. (المؤلف)

يصبحوا علماء في الفلك وأقروا بأن في السماء نجوماً على هيئة « صور » (أبراج) ثابتة مواقعها ولا تتغير في حركاتها الأبدية وتكون هذه النظرة نوع ما يمكن أن نسميه علم ما فوق الكون، إن ذلك يشبه التصور الأفلاطوني بالنسبة للعالم المتغير والزائل.

إذا أريد إلصاق الإعجاز بالنسبة للآلهة فلماذا لا تستخدم هذه الجمهرة اللامعة من النجوم في السماء كصور أكثر كمالاً للآلهة؟ وبحوزتنا قوائم فيها ذكر كل إله منسوباً إلى نجم أو برج كرمز له ومثل ذلك:

الإله آنو - ويرمز له النجم المسمى أوريابا وهو « الفهد » .

الإله أنليل - ويرمز له النجم المسمى مارجيدا وهو « العربة » - ويعني الدب الكبير.

الإله إيا - ويرمز له النجم الـ « سمكة » - نون وإلخ ..

إن هذا الربط أدى، بعض الأحيان، إلى ارتباك وخلط، بين المسميات الحقيقية للنجوم والآلهة ونلمس ذلك مثلاً في نص يمثل رسالة تعود إلى العصر الآشوري المتأخر أو الحديث وترقم هذه الرسالة القرابين المقدمة إلى النجوم، ولكن المقصود بذلك هو شيء آخر. فالنجوم لم تكن آلهة ولكنها « مدار أو مجال للآلهة » وكذلك فإن هذه النجوم صور لهذه الآلهة نقاءً والأكثر منطقية.

تكون الآلهة عالماً من كائنات النوع الثالث ومكانها فوق النجوم ومجالها فوق الكون.

ليس لدينا أي رقيم طيني يشرح لنا بكل وضوح هذه النظرية: وبالواقع فأي نظام غامض لا يمكن تفسيره بصورة تجريدية. ونقول أيضاً إن افتراضات معينة على الرغم من كونها منطقية فربما أن نفس هذه المنطقية حورت وبدلت الفكر الديني خلال الفترة الهيلينية وحتى اليوم، وهكذا فإن الديانة البابلية ينظر إليها بنفس هذه النظرة. (انظر الفصل الحادي عشر)، علماً بأن تطور هذه الديانة لا يصبح مهضوماً بدون فهم ما كتب لفترة تقارب ثلاثة آلاف من السنين وبدون جهود متعاونة في سبيل توضيح التعمق ومن ثم توضيح مفاهيم الإله ويقرب هذا إلى العقلية السامية منه إلى غيرها ومع ذلك فإن بعض الخطوط تتنافر في ذلك: كالرمزية وخاصة ما يتعلق منها بالكواكب والنجوم وما يتعلق بالرياضيات

والأعداد وسوف لن يبدو الأمر واضحاً بدون وضع مخطط معين يوضح الخطوط العريضة لمفهوم الإعجاز واللغز الإلهي.

نظام عالم الآلهة:

إن الإعجاز بالواقع نسبي ذلك لأن العالم العلوي السامي للآلهة صُور بهيئات عديدة. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة في محاولة رفع وتعلية هذا العالم فوق البشر، فإنه ظل بالنتيجة مجتمعاً مشابهاً لمجتمع البشر على الرغم من صفة الكمال المميزة لهم والتي هي أكثر بكثير مما عند البشر.

إن السبب في ذلك يعود إلى ممارسة تعدد الآلهة عند سامي وادي الرافدين ولهذا فإن علم الدين عندهم ظل ومنذ بدايته مبنياً على مبدأ التشبيه، وحتى في هذا الحقل من الفكر فلا بد من أنهم اندفعوا إلى ذلك بدافع من شعورهم الديني، وشعروا بحاجة إلى أن يعملوا تصفية معينة وهذا يوضح محاولاتهم العديدة في تنظيم عالم الآلهة.

إن التنظيم تم على طريقتين:

الأولى. كانت بالدرجة الرئيسة بإلهام ديني صرف والأخرى جرت حسب التبديلات السياسية وأنغامها.

إن الطريقة الأولى ليست موضحة في قوائم أسماء الآلهة التي سبق ذكرها وتشكل هذه القوائم أكثر من موسوعة. وفي القوائم الأسبق من الناحية الزمنية قياساً بالفترة السومرية والتي تعود إلى العصر السومري فإن قوائم مدينة فارة. شروباك (التي ترجع إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد) تذكر لنا حوالي ٧٠٠ اسماً للآلهة المعظمة في هذه المدينة وما يتبعها[1].

يتصدر هذا الجدول أسماء خمسة آلهة (وربما ستة) وهم أكبر الآلهة في هذا المكان والعصر: أنليل، نينين، نانا، أوتو. إن هذا الاختيار جرى على الأكثر بجهود علماء الدين وعمق إيمانهم وكان هذا الاختيار نهائياً: فإن الآلهة الكبيرة ظلت هي نفسها ولكن سوف نرى انضمام آلهة أخرى حولهم بطريقة معينة غايتها تكوين تكامل متلاحم.

---

[1]- إن هذا الجدول الكبير لقوائم الآلهة من شروباك محفوظ اليوم في متحف برلين. (المؤلف)

هذا المجهود في الترتيب بدأ مبكراً في العصر السومري وأدى في عصر الغزو العموري (زمن سلالة أور الثالثة والعصر البابلي القديم) إلى تكوين مجموعة من القوائم الممثلة لمذاهب دينية متعددة ومختلفة على الرغم من كون هذه الاختلافات ليست جسيمة ولا تصل إلى جوهر الأمور، وعلينا هنا أيضاً أن نذكر بأن الفضل يعود إلى علماء الدين في العصر البابلي القديم أو الأول في ترتيب جدول « مطابق للتعاليم الدينية ».

وحسب هذا الترتيب فإن عالم السماء يبدو منظماً مثل ترتيب شخوص بلاط ملكي. فهناك عشرة آلهة رئيسية أو « آلهة كبيرة » آنو، أنليل، بيليت - إيلي، إيا، سن، شمس، أداد، عشتار، نينورتا، نركال. إن الأول من هذه الآلهة بيده السلطة العليا، لقد سُمي زوجته: آنتو على رأس كل مجمع الآلهة وحتى على رأس الواحد والعشرين « أب وأم » الذين صوروا وحسب مفهوم علماء الدين كأصل للكون والوجود (انظر ص ٥٣) وحسب ذكر اسمه بهذه الصورة اعتبروه كما لو أنه الأول منذ البداية. لقد شرح رجال الدين البابلي أيضاً حسب مفهومهم شخوص الآلهة التي تمثل حاشية آنو فهناك: « كبير الوزراء » مع عقيلته وأطفالهم الأربعة عشر ثم هناك موظفين ومستخدمين على درجات مختلفة فهناك « ذيول أو أذناب الأسياد »، ثم « خدام الخيل الكبار » و «رئيس الحدائق» و «المستشارين»: والكثير من الآلهة الثانوية التي وجدت لها أمكنة في مجمع الآلهة بدون مضايقة للآلهة الكبيرة. إن كل الآلهة التابعة كان لهم مرؤوسين ويأتي ذكرهم وترتيبهم بعد ترقيم وذكر عائلاتهم ونعوتهم المختلفة (التي كانت ذات أصول قديمة لآلهة مستقلة أولاً ثم مزجت بشخصية إلهية أكبر قوة) كذلك فإن كل الشخوص الإلهية التي أبرزتها التقاليد منظمة في ترتيب طبقي كامل ونذكر أيضاً أن بعض الآلهة لا يمكن أن يضاف ويدخل في هذا الترتيب إلا بعد طرح وجمع للنظام، وتنتظر الحاجة إلى الموازنة في الترتيب لأجل الإقناع قبل أن ينتسب عضو جديد بدون معارضة التقاليد الدينية الأصلية.

ينتج من كل هذا تبسيط مذهل واختصار تنتج عنه وحدة معينة وبدون شك فإن فكرة تعدد الآلهة ظلت سائدة وهناك أهمية كبيرة معلقة على عدد قليل جداً من الآلهة تمركزت فيها القوة الإلهية للآلهة الأخرى وبنفس الوقت قلت فاعلية الآلهة الباقية ولا تصبح بالنتيجة إلا أطياف شخوص لا تكفي لأي إشباع للشعور

الديني. (هناك الآلاف من الملائكة والتي يرتبها علماء اللاهوت المسيحيين ومنها ما توضع في مرتبة التابع ...) ؟.

إن نفس الجهود في سبيل التوحيد وعلى سبيل منفعة الآلهة الكبيرة أثمرت منذ العصر السومري في تكوين مجموعات من الآلهة العلوية: مجموعة من إلهين وثلاثة وأربعة، إن أقدم هذه المجموعات هو الزوج المتكون من آنو - أنليل - إيا ذلك لأن أنينا اعتبرت كزوجة للإله آنو. إن هذه التجمعات استدعت تقسيماً جديداً للسلطة بين أعضاء الحكومة العلوية الثلاثية: لقد أنيطت بالإله آنو الوصاية على السماء ولأنليل الأرض ولإيا المياه والعالم السفلي الذي أصبح بعد ذلك من حصة نركال.

إن هذا التقسيم هو بدون شك النهائي والمعمول به من قبل علماء الدين البابلي منذ عصر حمورابي. وحسب هذه القاعدة فقد جمعوا ثانية مجموعة ثلاثية متكونة هذه المرة من إله القمر سن وإله الشمس شمش والعضو الثالث وضعوه مرة إله العواطف: أداد ومرة وضعت بدلاً عنه الإلهة عشتار. إن هذه التقسيمات تجعلنا نتساءل فيما إذا كانت مع مفاهيمهم المتعلقة بعلم الدين (جانب تنظيم عالم الألهة) أو الكون (أي دراسة تعيد كل مجال مادي في الحياة إلى إله معين) وهذا بالنتيجة يؤدي تلقائياً إلى تمركز الألوهية في أقل عدد ممكن من الشخوص.

هناك عملية أخرى للوصول إلى نفس النتيجة وهي ما يخص مسألة التوحيد أو بعبارة أخرى إذابة عدة شخوص إلهية في شخصية واحدة، إن هذه الظاهرة جاءت تلقائية أولاً وسببها الأول يرجع إلى اتصال وتقارب الآلهة السامية مع الآلهة السومرية وذلك منذ بدأ الشعبان في تلاحمهما المعروف: لقد كان من المسلم به بالنسبة للساميين أن يقربوا آلهتهم الخاصة بهم من الآلهة العائدة للمجمع الإلهي السومري وخاصة مع ما هو موجود من ملامح عديدة مشتركة بينهم (ذكر هذا الموضوع في الفصل الرابع). إن الحالة المعبرة جداً عن هذا التقارب هو حالة الإلهة عشتار[1] التي جمعت في شخصها كل الإلهات ويشبه ذلك حالة الإلهة إيزيس في الفترة الهيلينية الأخيرة.

---

[1]- انظر ص ٣٨ - ٣٩. (المؤلف)

وحتى بالنسبة للتوحيد فقد وصلوا به إلى تنظيم معين بدوافع أهمها سياسية ذلك أن مدينة بابل جمعت في امبراطوريتها كل أقاليم وادي الرافدين وجنحت لإدارتها تحت علم الدين كقوة توحيدية لا تقل عن الطرق السياسية وألصق علماء الدين الرسميين في بابل بالإله مردوخ كل الامتيازات ونعوت الآلهة الأخرى[1] كما حدث ذلك بالنسبة للإله آشور عند الآشوريين[2]، إن هاتين المحاولتين تعتبران من أقوى المحاولات في سبيل التوحيد الكامل.

وفي الواقع العملي لا الإله مردوخ ولا آشور نفسهما نجحا في إلغاء شخصية الآلهة الكبيرة الأخرى إلغاءً تاماً والصورة التي يمكن أن تلمس هي صورة حاشية سماوية بمركز أعضائها، بعض الأحيان، كل السلطة تقريباً في أيديهم دون أن يمحوا بذلك الآلهة الأخرى. ولكن معلمي الدين الكبار من البابليين هجسوا من ذلك نوعاً من التوحيد العلوي ولكن لا شيء يجيز لنا بواسطة التفكير بأنهم حلوا المسألة بالجنوح إلى مفهوم التوحيد أو حتى بما يمكن أن نسميه مرحلة ما قبل التوحيد، بطريقة مقصودة ومتعمدة.

إننا نجد كلمة إيلو وتعني « الله » تذكر قبل ذكر اسم شخصية إلهية[3] ولكن هذه الكلمة تعني أيضاً نوعاً من أسماء الجمع وكذلك « جمع الجلالة ». ونفس كلمة إيلو، نجدها أيضاً في تعابير مشابهة عند العبرانيين مثل: إيلوهيم وربما يكون هذا التشابه مجرد تشابه بالكتابة. يبقى أن نقول إنه من الجهود العظيمة المكرسة لتوحيد عالم الآلهة أنتجت شعوراً دينياً حركياً وعميقاً ونقول أيضاً إن سامي وادي الرافدين لم يصلوا، حتى بمساعدة تفسيرات وتأويلات معلمي الدين عندهم، إلى مفهوم وشعور بالتوحيد الكامل التام بالنسبة للآلهة.

---

[1]- انظر ص ٤٣ ـ ٤٨. (المؤلف)

[2]- انظر ص ٣٥. (المؤلف)

[3]- كذلك نجد في تعبير القسم: نيشي إيلي: ويعني » بحياة الله « وكذلك في نص يعود إلى حوالي ١٨٠٠ ق.م » كودور ـ مابوك «: بوضوح الإدراك الذي ميزه الله به. (المؤلف)

الفصل السابع

الإيديولوجية الدينية
علم دراسة الكون

الإيديولوجية الدينية
علم دراسة الكون

إن مصاعب عديدة تفرض نفسها عند البحث في هذا الموضوع الذي حاول السومريون والبابليون بعدهم، تفسيره وإيجاد الحلول له بطريقة الأساطير (انظر الملاحظة في أسفل الصفحة ٢٧ ملاحظة رقم ٧).

أصل الكون:

هناك الكثير من الأجوبة المعطاة لهذا التساؤل الأبدي وهذه الأجوبة تتراوح من الأسطورة الساذجة البسيطة، حتى التآليف الكبيرة التعليمية والمنتظمة.

إن الأسطورة الساذجة جداً، والبسيطة تماماً ممكن أن تكون تلك التي تبحث في أصل « الدودة المسببة للألم في الأسنان » المذكورة في بداية أقوال دينية ذات صبغة طقوسية تقال ضد أوجاع الأسنان:

« عندما خلق آنو السماء[1] أنتجت السماء الأرض، والأرض خلقت الأنهار، والأنهار خلقت القنوات، والقنوات خلقت الأواني والأواني خلقت الدودة والدودة ذهبت تبحث عن شمش .. »

هناك أيضاً أسطورة أكثر عمقاً من الأولى قيلت في طقس معين:

« عندما خلق آنو السماء وخلق إيا المياه أي (آبسو)، وهي محل سكناه، ومن المحيط أخذ إيا قطعة من الطين ... ».

---

[1]- هناك بعض الكسور في هذا النص ويفترض المؤلف هذه الترجمة بناء على المقارنة مع نصوص أخرى. (المترجم)

ومن هذه القطعة من الطين كون الإله إيا بالتعاقب - إله صانع الآجر، وإله مزرعة القصب والغابة، والإله - النجار، والإله - الحداد، والإله - الصائغ، والإله - قاطع الحجر، وهذه الآلهة بدورها كلفت ببناء المعابد وتأثيثها. كذلك خلق الإله إيا الإله الخاص بالخميرة وشجرة العنب في سبيل « تكاثر القرابين » في المعابد ومن ثم خلق إيا الحبر الأعظم للآلهة الكبيرة لتأمين عبادتها.

وهناك أيضاً أسطورة أكثر تفصيلاً وتخوض أيضاً في موضوع الخليقة من زاوية « خاصة بالطقوس » وتسمى هذه الأسطورة الشهيرة بـ « تكوين العالم حسب النظرية البابلية » تفسر لنا الأسطورة بأنه في الأصل كانت كل الأقاليم والأرض بحراً ولم يكن في الوجود « مسكن مقدس، ولا بيت للآلهة »، لم يكن في الوجود قصب ولا أشجار ولا مدن وحتى الشهيرة منها: مثل نيبور (نفر) والوركاء وأريدو بمعابدها. والخليقة كانت من عمل مردوخ وبدأت ابتداءً من مدينة أريدو ثم بابل ومعبدها (الإيزاكيل) وهذه تعرض كأنها تكونت كجزيرة في البحر وحيث كان « كل شيء مغطى بالماء » ومن ثم فإن مردوخ خلق الـ الآنوناكي ونجده من هذه الأسطورة أيضاً:

« مردوخ! على سطح المياه ظفر بحصير،

وضع شيئاً من التراب وخلطه مع الحصير ... »

وهذا كون لوحاً صلباً فوق المياه: وهي الأرض ثم:

« لأجل تمكين الآلهة من الاستقرار في أماكن محببة إلى قلوبهم ».

(فإن - مردوخ)، خلق بالتعاقب البشر، وحيوانات الصحراء، ثم خلق نهري دجلة والفرات، ثم خلق الزرع، ومزارع القصب، والغابة، والحيوانات الوحشية والأليفة وأخيراً قام ببناء المدن وبصورة خاصة نفر والوركاء مع معابدها.

إن هذا يؤلف ما يمكن تسميته نظرية « تكوين الكون والإنسان ». وإن ما تقدم يمكن أن يلحق بأمر إلهي كما نجده في الأسطورة الشهيرة للخليقة المسماة

« إينوما إيليش ». والكلمات التي تبدأ بها هذه الأسطورة[1]، وكذلك في الألواح الستة التي ألفها علماء الدين في بابل (أضيف لوح سابع إليها) لتعظيم الإله مردوخ.

ويكفي هنا أن نلخص بخطوط عريضة الأشياء المهمة من الأسطورة التي هي على شكل تكوين شعري مؤلف من أكثر من ألف بيت[2]:

في الأصل، لم توجد سماء ولا أرض ولكن فقط مياه في حالة من الفوضى مكونة من إلهين أصيلين اختلطا مع بعضهما وهما الإبسو والمومو- تيامت الذي يعني الحاكمة: تيامت. ونتيجة اندماج هذين الإلهين خرج زوج جديد من الآلهة بالتعاقب: لاحمو ولاحامو ثم إنشار وكيشار الذين أولدا الإله آنو والأخير أولد إيا على « شكله » والإله إيا قضى على الإبسو لأنه أراد تدمير نسله وأولد مردوخ، وتبع هذا الحدث ثورة تقودها تيامت ضد الآلهة انتقاماً للإبسو وتحضر لمعركة مخيفة وتجهز مجموعة من الوحوش الكاسرة (اللوح الأول).

ويرفض الإله إيا الاشتراك وخوض الصراع مع تيامت ويقبل النزال الإله مردوخ للحصول على السلطة العليا. (اللوح الثاني والثالث).

ويجري النزال وجهاً لوجه: مردوخ ضد تيامت وينتصر عليها ويسجن جيشها المخيف ويقسم جسدها إلى نصفين و « ينفخ الهواء » ويعمل من نصف جسدها العلوي الذي يرميه إلى الأعلى السماء، ومن النصف الثاني : الشكل المتناسق مع السماء (اللوح الرابع). وينظم بذلك مردوخ القبة السماوية بكل نجومها (اللوح الخامس) ومن ثم يخلق البشر على الأرض (انظر ص ١٠٩) ويستخدم سلطته العليا، والتي حاز عليها بعد نضال عنيف، في تنظيم عالم الآلهة ويتوجه ويحتفل به كـ « سيد الآلهة السماوية وعلى الأرض » (اللوح السادس). أما اللوح السابع المضاف من هذه الأسطورة فيكون ثناءً ومديحاً

---

[1]- تبدأ هذه الأسطورة بعبارة: « عندما في العلى ... » والمعروف أنه عند اليهود مثلاً أعطوا للعديد من كتبهم الدينية عناوين التعابير الخاصة بها والتي تبدأ بتعابير مشابهة لبداية أسطورة الخليقة البابلية إينوما إيليش. (المؤلف)

[2]- إن آخر ترجمة كاملة ظهرت لهذه الأسطورة هي للبروفسور رينه لابات:
R. Labat: le poéme babylonien de la création. Paris, 1935. (المؤلف)

ويذكر خمسين تسمية أو نعتاً للإله مردوخ تلخص عالمية وشعبية سلطاته وهيبته التي لا تقارن.

إن الأسطورة المسماة إينوما إيليش هي بالواقع أسطورة معبرة عن رفعة وسمو مردوخ ومعبرة عن إمساكه لزمام الأمور ولكل الفعاليات والنشاطات الإلهية للآلهة الأخرى: ولهذا فقد ميزوه وأعطوه النسب في كونه خالق العالم.

ومن الجدير أن نذكر انطلاقاً مما سبق، أن معلمي الدين في عصر بابل الأول أو القديم صاغوا مجموعة واسعة من الأساطير أصبحت مستخدمة خلال الطقوس الدينية في العيد الكبير وأكثرها تشيد بشهرة وسلطة مردوخ وأصبحت تمثل خير تمثيل الفكر الديني الخاص بأصول العالم عند البابليين[1].

ولتوضيح الخطوط العريضة لعالم الدين نذكر أن البابليين لا يبدو أنهم افترضوا انعداماً كلياً للأشياء كأصل للوجود بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل. وبهذا فإن الكون لا يبدأ بـ « خلق »، بما لهذا التعبير من معانٍ، ولكن يبدأ بتنظيم ما هو في حالة فوضى ولم يذكر لنا هؤلاء كيف أتموا وضع النظام بعد ذلك بتفصيل فمرة أكدوا على انفصال العناصر التي كانت مختلطة (كذلك نجد مثلاً في الإينوما إيليش: اللوح الرابع: فصل نصفي جسم تيامت .. إلخ)، نتج عن ذلك أن سادة بابل انتبهوا جيداً إلى ما ستكون عليه الأشياء كانتباههم إلى الأصل الأول والمطلق لها.

ونجد نفس النظرية بعد ذلك عند الإغريق.

إن النظرة إلى الأشياء التي ستكون تشمل أيضاً الآلهة بشخوصها ومن ضمنها أيضاً الإله آنو ... وفي أسطورة الخليقة هذه نجد أن الآلهة لا تكون بحد ذاتها « نظاماً » يختلف - بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة - عن نظام الأشياء المادية: إن الآلهة مشمولة بالنظام الكوني ونسب الآلهة المتعددة هو أول فتوى في نظرية تكوين العالم وهذا أيضاً ورد في الفكر الإغريقي.

إن تفاصيل مفهوم الخليقة وبدايتها يختلف من أسطورة إلى أخرى، فنجد في أسطورة الخليقة (إينوما إيليش) ثلاثة أزواج إلهية فقط قبل وجود الإله آنو.

---

[1]- في العصر الهيليني نجد تآليفاً ذات تعابير مشابهة جداً وأفكاراً متقاربة لأفكار البابليين في تكوين العالم والكون. (المؤلف)

ولكن قوائم أو جداول الآلهة تصل إلى العدد ٢١ من « الآباء والأمهات »، ومن هذه الأخيرة نرجع بالبحث إلى الوراء في مشكلة أصل الخليقة.

إن عملية « الخلق » بحد ذاتها تنسب مرة إلى الإله آنو، ومرة إلى آنو وإيا معاً، ومرة ثالثة إلى الإله مردوخ (كما ورد في أسطورة الخليقة إينوما إيليش. ونظرية تكون العالم حسب المفهوم البابلي) وبهذا فإننا نميز بوضوح أن الخالق تقمص في أسطورة إينوما إيليش دور الإله إيا. وحسب نظرية خلق العالم بالنسبة للآشوريين نجد أن الإله آشور يقوم بهذا الدور.

ويظهر أن الخالقين الذين خلقوا العالم والكون، أنتجوا أو كونوا العالم بـ « تسلسل » إذا جاز هذا التعبير. ففي الأسطورة حول الأصل من « دودة ألم الأسنان » نجد الإله آنو يخلق السماء ثم الأرض والأنهار .. إلخ. وحسب الطقوس البابلية نجد أن الخالق خلق أولاً « عناصر » الكون ومن ثم ما يكمل ذلك من عناصر ثانوية (وخاصة الآلهة « ذات الاختصاصات »). والذين يستخدمون هذه العناصر في صنع الباقي لإكمال الخلق، وحتى نفس مردوخ، فإنه في أسطورة إينوما إيليش لا يعمل أكثر من إثارة الحركة للكون. وهذا تكوين نسبي بالنسبة إلى تكوين العالم وخلقه كلياً على يديه (وهو مردوخ).

وهنا نعود إلى مسألة الصيرورة ونقارن ذلك مع ما ألفه هزيود[1] وكبار المفكرين الإغريق الباحثين في نظريات تكوين العالم وأصوله ونرى بأنهم انتبهوا إلى تكميل مذهب عقلي ومنطقي للمفاهيم الأسطورية بينما ظل البابليون في هذا المجال في فلك الخيال والأسطورة الصرفة فيما يخص بحوثهم للمسببات والعلل.

[1]- هزيود شاعر إغريقي من القرن الثامن قبل الميلاد ولد في أسكدا، كتب عدداً من التآليف الباحثة في الملاحم والأمور النفسية كذلك في ما يخص نظريات تكوين العالم. (المترجم)

تكوين العالم:

من المؤكد بأن البابليين انطلقوا في التفكير بالكون ليتخيلوا التطور الضمني الذي ينتج عنه. وبالواقع فإن « علم الفلك » البابلي هو صعب التحليل والذين حاولوا عمل شروح له لم ينجحوا أبداً حتى في إعطاء أنفسهم فكرة واضحة ومهضومة. ومع ذلك فيمكن أن نعرف بأن البابليين تخيلوا العالم كشكل كروي كبير مجوف ومغلف من كل جهاته بالمياه الأولى للمحيط الكوني وهي تيامت والتي هي في الواقع تشخيص لغموض الأجواء والمساحات والزمن البعيد جداً[1]: إننا نذكر أن مردوخ شطر إلى نصفين هذا الجسم المنتفخ للوحش ليعمل السماء من جزئه العلوي وعكس السماء « الأرض » من الجزء الآخر.

ففي نصف الكرة المجوفة يكون القسم العلوي منها إذن السماء وإلى الأسفل، الأقسام المتجانسة من السماء بالنسبة إلى الأرض هي مناطق جهنم.

إن المستوى القطري من الكرة الكونية أي الأرض هو عالم البشر وفي وسطها نوع من الفاصل المستوي ويكون صلباً إنه « الحصير » المنجز من قبل مردوخ وذلك حسب « نظرية تكوين العالم البابلية » وهذا الحصير يكون الأرض وتحيط بها من كل الجهات مياه المحيط الآخر، مياه المحيط الأرضي وهو الإبسو الذي فوقه تعوم « الحصير » المشار إليها، إن هذه المياه محددة في مداها الأفقي البعيد بسداد دائري يتكون من جبال شاهقة العلو تسند هي بنفس الوقت القبة السماوية.

إن تنوعاً في عرض مسافات الفضاء يوضح لنا تقسيم المجالات الخاصة بالآلهة الكبيرة (انظر ص ٩٦): فالسماء هي حصة آنو، والأرض لأنليل، والإبسو لإيا وحصة نركال مناطق العالم السفلي أو عالم الأموات.

إن نفس السماء ليست بالبساطة المعروفة فإنها تحوي على قبب عديدة الواحدة فوق الأخرى وتبدأ من الأكثر قرباً وهي أماكن النجوم حتى تصل إلى قمة هذه القبب حيث (سماء آنو) ومحل سكنى الآلهة العظيمة السامية وتعرض

---

[1]- انظر أيضاً إينوما إيليش وفيها تجد تيامت في الأصل أول الكون كله كآلهة وبشر أيضاً. (المؤلف)

لنا أسطورة « إيتانا » علو هذه الأخيرة حيث الصقر يصلها بـ « ثلاثة أضعاف الساعة » بطيران عمودي.

إن تقسيمات مجالات العالم العلوي ينطبقان مع الفكرة والمذهب اللذان اكتشفهما البابليون بنظرتهم الإجمالية للكون وحسب هذه النظرية فإن عالم الأرض انعكاساً لما هو على شكل النجوم وهذا مثل الشكل الأخير الذي هو صورة لعالم الآلهة (انظر ص ٩٠).

وبالواقع فإن النصوص الخاصة بعلم التنجيم توضح لنا عالم النجوم كمرآة للأرض: « الأركان الأربعة للأرض » وهي أكد، سوبارتو - كاتيوم، عيلام وآمورو (تتفق هذه الأقاليم مع النقاط أو الأركان الأربعة) ولهذه الأقاليم مرادفات مع مجموعات معينة في خارطة النجوم كذلك تنسجم هذه مع خطوط الأنهار كدجلة والفرات وحتى مع المدن مثل بابل. ونجد أيضاً أن تاريخ الأرض له تجاوب مضبوط ومقنن في السماء والنجوم وهذا التجاوب « مكتوب » في دوران النجوم والظواهر الجوية (انظر ص ١٥٠) حث يقودنا إلى البحث بتبصر في :

حكومة العالم:

ويعني هذا اتصال صيرورة العالم مع المسببات الأولى التي تترأس هذه الصيرورة وتفسرها.

إن هذه المسببات هي بالطبع ذات طابع مقدس وإلهي، إن الآلهة هي التي « تحكم » و « تقود » العالم. إنهم « ملوك الكون » وكذلك ملوك « كل السماء والأرض »، و « أسياد ورؤساء كل شيء » وبصورة خاصة « كل شيء حي ».

ونرى في هذا المفهوم المتجسد في المسبب الإلهي للعالم الدائر انعكاساً تطبيقياً فالبابليون استخدموا صورة لحكومتهم الملكية وهذا بالواقع ذو أصل سامي قبل أن يكون سومرياً: إن الآلهة تمارس سلطتها على الكون بكامله بنفس المفهوم الذي يمارسه ملوك بابل ونينوى في إدارة إمبراطورياتهم وبهذه الحجة نجد أن الملك « صورة » للإله وأحياناً هو الإله نفسه ونلمس هذا بصورة خاصة في العصور القديمة حتى عصر الملك حمورابي حيث يعلن الملك من نفسه إلهاً ويشارك، بطرق خاصة، امتيازات هؤلاء الذين يمثلهم وهم الآلهة.

وفي أسطورة الـ إينوما إيليش نجد أن الآلهة:

« مغتبطة وتعلن بكل هيبة: (بأن مردوخ هو ملكهم)،

ثم يمنحونه الصولجان والتاج والشارة الملكية (بالو) ... »

إن الآلهة الكبار: آنو، انليل، مردوخ وآشور يعتبرون « ملوكاً وأسياداً للآلهة الأخرى »، وهذه الأسماء غير مقيدة ولم يتوصل إلى تحديد إطلاقها بالنسبة للشخص الذي يحمل لقب إله - إمبراطور غير مقيد.

أما الآلهة من الدرجة الثانية فإنهم لم يتوصلوا أبداً إلى السلطة وهم في هذا يشبهون حاشية وتابعي ملوك الأرض، ويتوزعون كرؤساء لموظفين وهم بنفس الوقت من المرؤوسين، وغالباً ما نجد تعابير تكشف لنا عن بيوت ملكية مخصصة لهذه الآلهة الثانوية.

إن طريقة ممارسة حكم الآلهة موضح بنفس الصورة المنقولة من الملوكية على الأرض: فكما أن الملك يتصرف بما لديه من سلطة كذلك نجد الآلهة:

« أنت حاكم السماء والأرض

بكلمة منك وُجد البشر في الكون

أنت الذي تعين أو تعلن أسماء الملوك والأمراء ... »

وبالنسبة للساميين كما بالنسبة للسومريين أنّ تلفظ اسم شيء ما أو شخص ما بإيمان يدل خلق ذلك الشيء أو الشخص، ويتم ذلك حسب الخواص والمظاهر التي يعبر عنها الاسم. لقد استغلوا هذا في تصور رائع للفعل المؤثر والمنتج لما فيه من معاني ولم يتقاعسوا عن تطبيقه بالنسبة للآلهة وهذه الفكرة عبروا عنها باصطلاحات مثل:

« ذكر الحياة » ويعني هذا إدامة للحياة والمحافظة عليها ويقارن هذا الاصطلاح مع ما هو موجود من أسماء كصيغة: مردوخ - بالا - سو - إكبي

« إن مردوخ قدر (بصورة فعالة) حياته ».

هذا الكلام من الآلهة يعتبر كواسطة ورمز لفعاليتهم وقوتهم وبصورة خاصة في تسيير العالم[1] وهذا أعطى للشعور الديني دفعة مقدسة ذات فعالية كبيرة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار كثرة مضاعفة التعظيم المكرس في كل الأوقات لهذا الكلام.

فإننا نجد كذلك ليس فقط بإلباسه النعوت المعبرة فيقال مرة لكلام الآلهة إنه ثقيل « ومليء بالأهمية » و « لا يقاوم » و « غير قابل للتبديل » وغير متزعزع و « مخلص » و « ذو جزالة » و « رفيع المقام » . إن النوعية الإلهية للكلام تؤثر أحياناً بصورة فعالة جداً إلى درجة إلحاقها بالإله آنو نفسه:

« إن كلامك يشبه كلام آنو ... »

كذلك يوصف كلام الآلهة بكونه ترانيم كاملة. إن أهميته من الناحية الدينية لا تظهر فقط في ممارسة الطقوس والعبادة الدينية الرسمية ولكن حتى في ترديد كلمات التعبد الخاصة وتظهر هذه الأهمية أيضاً في الكثير من أسماء الأعلام للأشخاص مثل صيرات ـ كيبت ـ مردوخ ويعني ذلك: « جليل هو كلام مردوخ » وكذلك الاسم: إينا ـ كيبي ـ بيتي ـ بالاطا الذي يعني: « كلمة بيليت هي الحياة » ..

من الممكن أيضاً أن نحلل كلام الآلهة الفعال هذا لمعرفة مغزاه وما يخص الفكر أيضاً وذلك خلال التعابير ومنها نستطيع أيضاً معرفة « مخطط » الآلهة وكذلك (مقاصدها الفعلية) ويعبر عن ذلك بكلمة (أوصورتو باللغة الأكدية وبـ كيش ـ خور بالسومرية) وفي ملحمة كلكامش وقبل خلق أنكيدو نجد أن الآلهة آرورو: (اللوح الأول):

« تصورت في نفسها شكل الإله آنو

وحسب هذا الشكل أو الوجه فإنها صنعت حدودها الجغرافية »

ونجد الآلهة مامي خالقة البشر حسب تقاليد معينة (انظر ص ١٠٨) نجدها « سيدة الرجال » ونأخذ من هذه التعابير التي يقصد بها أن الشيء الذي وضع

---

[1]- ليس لدينا حتى اليوم أي إثبات يقنعنا بأن البابليين تصوروا تكوين الخليقة بفعل كلمة واحدة وهذا ما نجده عند المصريين القدماء والعبرانيين. (المؤلف)

أو خطط له بواسطة الآلهة وما له علاقة بالعالم يشير إلى أنه سيكون على صورة وهيئة مجلس الحكومة حيث الملك محاط بوزرائه يقرر مصير أتباعه وأراضيه وهذا تقليد لشكل صالة مجلس الآلهة ويسمونه « مكان المقدرات » حيث الآلهة في مجمعهم الخاص وهم « يحددون » و « يقدرون القدر » للعالم ولكل فرد، قدر أو مصير. الآلهة وهو « السادة » فيه ومحضر الجلسة هذه وضع على رقيم من الطين وهي تشابه ما نعرفه في « كتاب المصير » المحرر بيد الإله ـ الناسخ نابو المسؤول الأول عن الوثائق من هذا النوع.

وفي أسطورة الـ إينوما إيليش (اللوح الأول) فإن ضبط أو مسك « رقم الطين » أو الوثائق الخاصة بالمصير تعد من امتيازات الآلهة العليا: وعندنا أسطورة تسمى « زو، الطائر ـ العاصفة » تذكر لنا سرقة هذا الطائر للوثائق الخاصة بالإله أنليل وكيف أن جميع جو الآلهة أصبح مضطرباً جداً نتيجة لذلك، ونجد أن الإله آنو أصبح لذلك مجبراً على منح الملكية للعالم. ونستطيع أن نفهم ونهضم هذه السلطة بصورة أعمق إذا عرفنا أن هذه الوثائق والنصوص بالذات تحوي أيضاً على « مصير الآلهة » أنفسهم.

ومن هنا يبدأ وضوح الفكر في وجود قوة علوية ضرورية تحمل حتى الآلهة إلى شيء اسمه القدر. وهذا الوضوح لم يتبلور عند البابليين إلا بشكل ميل معين نلمسه في أدبياتهم المكتوبة: فمصير الآلهة كان معيناً من قبل مجلس الآلهة أنفسهم، ويمكن أن يكون هذا الشيء معبراً بصورة أعمق في الفترة السرجونية (الفترة الأخيرة من العهد الآشوري المتأخر أو الحديث) ومثال على ذلك إيجادنا غالباً للاصطلاح الأكدي: شيماتي ومفرد ذلك شيمتو والذي يعني « المصير » مسبوقاً بعلامة التعريف التي تشير إلى الآلهة وهذا دليل بأن مفهوم المصير بحد ذاته أصبح « موضوعاً دينياً جداً » وهو كموضوع ومادة يرتبط أيضاً بالشعور الديني.

ومن الممكن أيضاً أن دائرة اختصاص كبار المفكرين البابليين في هذا المجال وصلت إلى نوع من إدراك لقانون هام يرتكز في مداه البعيد على الأسطورة التي تنص على كون مسيرة العالم منظمة بإرادة وقرار الآلهة.

أما بالنسبة لنهاية العالم فإن النصوص المسمارية لا تنورنا فيما إذا كان العقلاء من البابليين أو الآشوريين قد بحثوا أو تأملوا في مجالاته ولكن المؤرخ

البابلي الشهير بيروس[1] يوضح لنا بعض الشيء من ذلك وينسب إليهم: نظاماً خاصاً يذكر فيه عمر العالم بصورة مضبوطة وحسابات ذلك كما ذكرها بيروس كالآتي:

إن مدة عمر العالم هي: ٥١٨٤٠٠ سنة مضت منها ٤٣٢٠٠٠ سنة والتي تمثل فترة ما بعد الطوفان إضافة إلى: ٣٤٠٨٠ أو ٣٣٠٩١ سنة والتي تمثل الفترة من نهاية الطوفان حتى عصر بابل الأول ثم هناك ١٩٢٠ سنة وهي المدة المحصورة بين عصر بابل الأول حتى موت الاسكندر الكبير وبهذا فيبقى لعمر العالم أو نهايته أو إعادته بدايته من جديد، ٤٣٢٠٠ سنة.

إنه بالرغم من معرفتنا بكتابات المؤرخ البابلي بيروس المخلصة فهناك اتفاق أو انسجام في الحسابات البابلية أو الآشورية الأصلية مع ما نقله لنا بيروس ولكننا مع كل هذا لا نستطيع أن نبت في ذلك بصورة تامة ولا نستطيع الذهاب أبعد مما نقله إلينا بيروس.

---

[1]- بيروس وبلسان الإغريق بيروسوس، في الأصل كان أحد كهنة الآلهة مردوخ وفي حوالي عام ٣٤٠ قبل الميلاد درس في مدينة كوز وكتب باللغة الإغريقية تاريخ بابل في مجلدات ثلاث وأهداها إلى سلوقس أنتيوشوش الأول وفي مؤلفاته يتكلم بالحقيقة عن عالم متكامل اندثر منذ أمد ليس بالقليل (من المعروف أن سقوط بابل على يد كورش الفارسي كان في ٢٩ تشرين الأول من عام ٥٣٩ قبل الميلاد وبالرغم من مرور الزمن فقد كانت تسمع هنا وهناك وفي المعابد بشكل خاص كلمات واصطلاحات سومرية وقد قلدت حتى بعض الكلمات والمقاطع السومرية.

(المترجم)

الفصل الثامن

إيديولوجية الدين

علم الدين بالنسبة للإنسان « الفرد »

إيديولوجية الدين

علم الدين بالنسبة للإنسان « الفرد »

قبل أن نوضح مفهوم البابليين وطريقة نظرتهم للعلاقات بين الآلهة والبشر علينا أن نوضح بتمعن الصفة العامة لهذه الآلهة والتي هي حسب مفهوم سامي وادي النيل ليست ذات علاقة فقط بأقاليمها ومعبوديها الخاصين بها، ولكن أيضاً في علاقة هذه الآلهة بالعالم أجمع. وبأكثر مما نتصوره بهذا المفهوم. وعلاقتها بكل البشر أيضاً.

العلاقة الأولى هي بديهية، فالآلهة خالقة وحاكمة الكون، وهي قوى كونية وسلطتها تمتد إلى كل المخلوقات. أما العلاقة الثانية فتنتج تلقائياً من الأولى والأدبيات المكتوبة بالخط المسماري تزودنا بشواهد عديدة عن ذلك « فالآلهة » تحكم البشر، إن في « أيديها السيطرة على كل الشعوب ومصيرها » و « راعية كل البلدان بدون استثناء » ...

هذه العالمية في العمومية نفهمها أكثر حين نعلم أن الساميين استبعدوا الآلهة الأجنبية من عباداتهم مثل الإلهة خالديا في أورارتو والإله تشوب في ميتاني ولقد ذكر هؤلاء مثلاً في حوليات الملوك بدون أن يحطوا من قيمة أي واحد منهم. وفي القوائم السومرية الواردة إلينا من مدينة نييور (نفر) من نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، نجد الآلهة الأجنبية (ومنها التي أدخلت متأخرة في مجمع الآلهة البابلي) تأتي في التسلسل بعد آلهة سومر وأسماء هذه الآلهة الأجنبية نجدها خالية من علامة التعريف التي تسبق أسماء الآلهة وهذا يدعونا إلى الشك في شرعية نوعيتها الفائقة للطبيعة.

أصل الإنسان :

إن مصدر مفهوم العمومية بالنسبة للآلهة ربما يكون هو المذهب البابلي الخاص بخلق الإنسان كما هو بالنسبة لخلق العالم كله بواسطة الآلهة. إن الأساطير التي تسرد هذا الخلق هي غالباً مكملة للنظريات الخاصة بتكوين العالم وتختلف هذه أيضاً في تفاصيل ذلك.

إن الأصل في خلق الإنسان يذكر غالباً بأنه حصل من قبل آلهة (مؤنثة) وذلك احتراماً وإجلالاً لدور المرأة الرئيس في تكوين جسد كل فرد وهذا ما نجده بالنسبة للإلهة نينخورساك في نص من النصوص (المحفوظ اليوم في المتحف البريطاني) كذلك بالنسبة للإلهة مامي في أسطورة إيا - أترخاسيس، والإلهة ننتو في أحد الطقوس الدينية المكتوبة باللغة السومرية ونفس الشيء بالنسبة للإلهة آرورو في ملحمة كلكامش.

ومع هذا فإننا نجد مثلاً في نصوص أخرى، أنّ الإله الخالق إيا يدخل باتفاق مع الآلهة (كما هو وارد في نص محفوظ في المتحف البريطاني) أو وحده (كما هو في الطقس المعروف تحت عنوان شريو، اللوح الرابع): « إيا الذي صنعت يداه البشر ... »، وفي أسطورة الـ « إينوما إيليش » نجد طبعاً الإله مردوخ يأخذ مكان الإله إيا في ذلك وهكذا بالنسبة للإله آشور في الأسطورة الآشورية الخاصة بالخلق، ونجد أيضاً في « ما هو مكتوب بلغتين من الوثائق الآشورية: إن مجموع الآلهة هي التي قررت خلق الإنسان. »

إن الطريقة التي تم بها خلق الإنسان تختلف كذلك. فمرة نرى ذلك بطريقة غير محددة، حسب طقس ديني سومري ذكرناه سابقاً، جاء فيه بأن الإلهة ننتو، الأم الأولى، صنعت في مدينة كيش كائناً بشرياً ذكراً على هيئة الإله ننورتا وصنعت كائناً آخر مؤنثاً هذه المرة، على هيئتها نفسها أي بشكلها. ومرة أخرى نجد أن الطريقة تبدو واقعية جداً : وهي مرحلة ما قبل الخلق وهي صافية ونقية وبسيطة وهذا ما تحويه « نظرية خلق العالم البابلية » إذ تذكر أن الإلهة « آرورو أنتجت بمعية مردوخ بذرة البشرية » وفي نصوص أخرى نجد أن الطريقة اصطناعية على الأغلب والشكل الشائع فيها هو طريقة خلق الإنسان من التراب وتجد في أسطورة إيا - أترخاسيس أن الإلهة مامي صنعت من الطين

أربع عشرة « أماً » سبع منها أولدت الرجال والسبع الأخرى أولدت النساء والأمهات جميعاً صنعن على هيئة أو شكل الآلهة.

إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل يعتبر صورة طبيعية جداً في بلد يلعب فيه الفخار دوراً كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين بشكل إنسان عملاً منتشراً بصورة واسعة ونجد نصوصاً أخرى تضيف، بطريقة أسطورية، عنصراً آخر إلى مادة الطين هذه. إن ذلك العنصر هو دم إله وهذا ما نجده في أحد النصوص حيث يذكر بأن الآلهة ننخرساك حددت بالطين حدود هيئة الإنسان المزمع خلقه وأعطت للشكل الحياة بخلط لحم ودم إله مذبوح بالشكل التالي بأمر من الإله ايا:

« فتح ايا فمه وأعلن على الآلهة الكبار:

ليذبح إله،

ولتخلط ننخرساك لحمه ودمه مع الطين:

« إله - و - إنسان، سينتج من ذلك،

متحداً مع الطين ... »

ونجد نفس الفكرة في النص الآشوري المحرر بلغتين:

« اذبحوا هذا الإله المزدوج (خنثى ؟) المسمى لامكا،

ومع دمه، اخلقوا البشر ...».

وفي أسطورة الـ اينوما ايليش نجد نظيراً لذلك فبدم الإله كينكو، المذبوح عقاباً له بعد ثورة تيامت، خلق الإله مردوخ الناس.

ونجد أسطورة أخرى رائعة عند الإغريق هذه المرة حيث نشاهد المغنيين من الوثنيين يسردون لنا خلق الإنسان من رماد الجبابرة الأبطال الذين هم نصف مادي (وهو لحم الجبابرة)، ونصف بشري (لحم ديونيسوس الذي افترسه هؤلاء): إنهم يقصدون بهذا وجود « جزء من الإله » في الإنسان على الرغم من دناءته وغرائزه الجسدية. ولكننا نرى أنّ الأسطورة البابلية ليس فيها بالضبط ذات هذا المفهوم: فهي تنص بالواقع على وجود شيء ما من الآلهة في الإنسان

وهذا الشيء ـ في الحقيقة هو الحياة نفسها ممثلة بالدم وتعود هذه الحياة عملياً وتصير يد الآلهة فهي ليست إلا نعمة وقتية للبشر.

أما بالنسبة لما هو موجود من « تشابه بين الآلهة والإنسان الذي عمل أو خلق على شكل هذه الآلهة فهو لا يأخذ أكثر من طابع مادي: فالتشابه الموجود بين البشر والآلهة يرجع إلى كون أجساد الآلهة وكيانها ولمعانها وقوتها لا يدخل ضمن نقاط التشابه وما يدخل فيه هنا ليس أكثر من تبرير للتشبيه وهكذا نجد مثلاً أن الإلهة نناكل: قد صنعت » جلد: (جسد ؟) الإنسان مشابهاً لجلد إله... »

بقي أن نذكر نقطة أخيرة تخص الهدف من فكرة البابليين في فرضيات خلق الإنسان. وهذا الهدف هو مرة: « لا ديني » وهذا ما يظهر واضحاً في النص المحفوظ في المتحف البريطاني:

« ما صنع من كمية صغيرة جداً، فليوسع حتى الكمال: وليكن الإنسان مسؤولاً عن تكاثر المخلوقات » ..

إن المراد قوله هنا أن الإنسان صنع ليكمل ما خلقته الآلهة وللوصول بها إلى الكمال والتمام وذلك بتحريك العناصر التي اقتصرت عليها الخليقة أولاً: ونقول هنا إذاً بأن الإنسان خلق « لثاني سبب كبير » في وجود العالم. نجد كذلك غالباً أن هدفاً آخر للخليقة البشرية قد أكد عليه، دينيا صرفاً هذه المرة، ونظرية تكوين العالم البابلية تذكر ذلك بوضوح:

« لأجل تمكين الآلهة من الاستقرار في أماكن محببة إلى قلوبهم،

فقد خلق مردوخ البشر ... ،

وفي أسطورة الـ إينوما إيليش نجد الذكر التالي:

« سوف أخلق الكائن البشري، الإنسان،

لأجل أن يقوم بخدمة الآلهة بطريقة تجعلها بلا هموم ... »

وفي النصوص الآشورية المكتوبة بلغتين يظهر أنها تلتزم بقصدية مزدوجة دينية وغير دينية: وتنسب هذه الأدبيات للبشر وجوب تنظيم العالم « وضع وتنظيم حقل بجانب حقل آخر .. » كذلك وجوب عمل الطقوس الدينية التعبدية ويتجسم ذلك في « تشييد الدار الكبيرة للآلهة، واتخاذه معبداً عظيماً ... »

إن هذا يجبرنا على الاعتراف بأن عقلاء بابل رتبوا مذهباً مدروساً لمفهوم ومعنى الحياة البشرية: فالإنسان صنع لخدمة ما هو إلهي وكذلك لإكمال وإتمام الطبيعة.

قيادة الإنسان من قبل الآلهة:

إن الآلهة تهيمن وتقود حياتنا كما هو بالنسبة لكل الأشياء وهذا طبيعي لأنها « تتحكم بالسماء والأرض » و « تقود الكائنات البشرية » ولكن الإنسان هو أكبر وأكثر وأعقد من عامل مادي مساعد بسيط في تكوين الكون وذلك لأنه يتصرف أيضاً بإيعاز من نفسه هو ومن خلال علاقاته مع مشابهيه مثل ما هو في عالم الآلهة وينتج من ذلك بالنسبة للإنسان سلسلة من الالتزامات « المعنوية » فنسبة إلى أي عرف أو مقياس للظواهر العميقة من حياة الإنسان كان البابليون يعترفون به ومن ثم جعلوا له علاقة بما هو مقدس وما هو مشبع بالدين؟.

من المحتمل أن يكون هؤلاء البابليون قد اعترفوا، بتأثير السومريين، بالتزامات اجتماعية عديدة ومن الممكن أيضاً أنهم مسحوا كل ما هو غامض ومتعب من الناحية الفكرية وهذا ما تشد به نصوص مسمارية وتعيد ذكره حتى الإشباع. ويكفي أن نذكر قانون حمورابي الذي يدور في تقاليد تشريعات أسبق منه زمناً ممثلة مثلاً بقوانين لبت عشتار وأشنونا ولكن قانون حمورابي يظل نصباً فريداً ممثلاً للقانون المدني والعقابي والاجتماعي لعصر بابل الأول. وكل ما فيه منظم في تفاصيل دقيقة ونجد لكل مجالات الحياة الاجتماعية اجتهادات قضائية قانونية ونجد كذلك ذكر غرامات جزائية على مخالفي الحياة الاجتماعية اجتهادات قضائية قانونية ونجد كذلك ذكر غرامات جزائية على مخالفي نصوص مواده الباحثة في: الشكاوى والشهادات والحكم المادة: (١ - ٥) أو الباحثة في مشاكل السرقة: (٦ - ٢٥)، الواجبات العسكرية (٢٦ - ٤٠) وفي ما يخص مجموع المواد المتعلقة بالحياة الزراعية والسكنية والتجارية: (٤٢ - ١١١)، وما هو خاص بالإيداع (١١٢ - ١٢٦)، والقوانين الخاصة بالعائلة (١٢٧ - ١٩٥)، التعويضات والغرامات (١٩٦ - ٢٢٧)، جداول تعاريف الأسعار (٢٢٨ - ٢٧٧) وأخيراً ما يخص العبيد (٢٧٨ - ٢٨٢).

نعرف كذلك مجاميع قانونية عند الآشوريين يعود تأريخها إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد والتي تتميز مفرداتها بصورة خاصة بالصرامة المبالغ بها وخاصة فيما يخص العقوبات والجزاءات. ونرى الاهتمام الجدي في تطبيق هذه القوانين بما نعرفه عنهم في العديد من العقود والأحكام والدعاوى ونصوصها المطبقة عملياً بشكل صارم كذلك الحال بالنسبة لكل مفردات مواد القانون.

لقد سبق البابليون والآشوريون كل شعوب العالم القديم بكونهم أحسن من وضع القوانين وبرزوا وسبقوا بذلك حتى الرومان. وبالحقيقة إن فهمهم لمعنى القانون والمسؤولية بالقضاء والشرع مدهش جداً.

ولكن هذا القانون مع ما فيه من شروح إلزامية فإنه جاوز عندهم المجال الدقيق للضرورة والاستخدام الاجتماعيين وقسى كثيراً على « المعنويات » والكرامة الشخصية للإنسان وربما كانوا لا يستطيعون عمل شيء آخر وخاصة بالنسبة إلى العقوبات الصارمة جداً والتي نصت عليها القوانين الآشورية ضد بعض التصرفات الجنسية الغريبة والمخالفة. وهذا ليس الشاهد الوحيد لما يتعلق بالاهتمام الخلقي، فهناك مواد واسعة البحث مكرسة لتوجيه الأخلاق أكثر من أن تكون ذات صبغة قانونية صرفة، ونجد مثلاً في نص اكتشف في مدينة آشور ويخص موضوع الأخلاق:

« إن الذي يأخذ امرأة شخص آخر هو مذنب كبير.

والذي يقسم يميناً كاذباً هو منافق. والذي يشير بإصبعه متهماً غيره تهمة تؤدي إلى إهانة أحد أخوته وتسبب له شقاء وتعاسة وتؤدي إلى تسليمه للسلطة من قبل شخص أقوى منه فتعتبر هذه جريمة ».

هذا الميل المليء بالذكاء والعبقرية الشرقية وهذا الاهتمام بالأمور الخلقية فسر بسهولة على شكل حكم ورموز أو بشكل قصص أسطورية. بقي أيضاً مجموعات أخرى تخص نفس الموضوع وفيما يلي مثلاً قصيدة ذات أربعة أبيات والهدف من مضمونها هو طبعاً ترسيخ التحسس العميق بالقيمة الشخصية للإنسان:

« إن الخنزير لا يملك أي اهتمام بالذكاء:

يتمرغ في الأماكن الوسخة، ويلتهم علفه.

إن الخنزير لا يطالب نفسه بما: « سيكون عليه من رفعة وشرف ؟ ».

إنه يقول فقط في قلبه « ماء الزبل - السيان - هو قوتي ».

مع هذا الاحترام للحقوق ولهيبة الخلق - وعدم التأكيد على ما يخص الالتزامات الدينية التي هي من أهداف الخليقة - فإن البابليين لم يحجموا أبداً حتى عن إلصاقها بالآلهة.

إننا نجد إرادة الآلهة هي المصدر والملهم والأصل في ما هو متعارف عليه من الحقوق والواجبات والقوانين، وهذا ما عرفناه سابقاً (انظر ص ١٤ ...) وتتفق هذه المفاهيم مع العقلية السامية لا مع السومرية.

إن الإله الذي يذكر اسمه غالباً في هذه القوانين هو الإله شمش، إله الشمس، والضياء الذي لا ينضب، والذي يوضح كل شيء بدون رحمة. إنه هو الذي « أعطى القوانين وقدمها » إلى حمورابي، تجسم لنا العاهل البابلي واقفاً أمام عرش هذا الإله وهو يستلم منه السلطات الخاصة بالتشريع والحكم.

إن الإله شمش هو « سيد الحقيقة والعدالة » وهذان اللقبان التجريديان للشخصية[1] يمنحان له كولدين أي من خاصيته، وبالواقع إن آلهة أخرى تشارك الإله شمش، امتيازاته بحيازة « الحقيقة والعدالة » وكذلك « حب الحقيقة والعدالة » وأخيراً بكونه « الحاكم »: كذلك نجد ذكر هذه الخاصية بالنسبة للآلهة: سن، أداد، نابو، نسكو، نتورتا، عشتار .. إلخ. وكذلك ينسب إلى الإله آنو شخصياً بكونه « خالق القوانين ».

إن القوانين التشريعية والأخلاقية تتميز بكونها أيضاً « ذات طابع ديني عميق جداً » ومقدسة منذ الأصل والالتزامات التي تحتويها تأخذ إذاً طابع القوة للإرادة الإلهية وبالنتيجة فقد أصبحت بدورها ذات طابع ديني وتداخلت بطريقة أو بأخرى بالتزامات الطقوس. وعندما نقرأ في قانون حمورابي النص التالي:

« آنو وانليل .. خلقوني، أنا، حمورابي، الأمير الورع التقي،

---

[1]- هناك أسماء بعض الآلهة التي أُلهت من التجريد وهذا المفهوم نادر الورود في الديانة السامية. . (المؤلف)

عـابد الآلهـة. خلقونـي لنشـر العدالـة في البـلاد، وللقضــاء علـى الأشــرار والمجرمين، ولمنع القوى من إيذاء الضعيف، ولأرتفع بنفسـي وأعلـو علـو شـمش[1] فوق البشر وأسلط عليهم النور ... »

فإننا من ذلك نميل تلقائياً إلـى الاعتقـاد بـأن حمورابي اعتبر دوره كمشـرع مثل دوره كصاحب وظيفة دينية وحتى أنـه ذهـب إلـى أبعـد مـن ذلك حيث اعتبر تصرفاته جـزءاً مـن تنفيذ طقـس دينـي وحتـى أنــه اعتنــى بتمييـز نفســه بكونــه «ورعاً» و « عابد الآلهة » ومن هنا نفهم أنه نصب من نفسه مشرعاً وذلك بدافع من ورعه وانغماسه في الدين بعمق. إن هـذا الميل الفكـري عنـد حمورابـي لـم يكـن مهضوماً من قبل المجموع، فالفرد البابلي من العامة وغيرها عليه إطاعة القوانين طاعة عمياء؟ وإذا لم يفكر ويأخذ بحسابه تعظيم الآلهة فإن عليه بكل بساطة أن يتحمل النتائج السلبية ذات الشؤم بسبب عدم طاعته.

ولكن هنـاك شـك في أن يكون الديـن متمكنـاً مــن أن يُخضـع ويُلـزم الأفـراد جميعـهم علـى تطبيـق القوانـين الاجتماعيـة والأخلاقيـة وهـذا مرفـوض بصـورة خاصة بين البالغين والناضجين وهنا تقبع المشكلة الكبيرة. فكان علـى السـاميين منذ العهد البابلي القديم أن يحسبوا حساب الإلـه أوتـو مثـلاً، الـذي لا يمكـن أن يكون قد تحول من إله بسيط للحرب وتقمص بعد ذلك شخصية الإله شمش إلـه العدالة والحقيقة إلا بعد هيمنة وتوسع الساميين بكافة مجالاتهم ونفس التخبط في المجال الاجتماعي والخلقي نجده مثلاً في الكتابات الدينيـة فنقـرأ مثـلاً في مـا نسـميه « امتحـان الشـعور » أو جـدول الأخطــاء المحتملـة التـي نجدهــا في بحـث خـاص بطـرد الأرواح الشـريرة ونسـميه « شـربـو »، وهنــا لا نسـتطيع أن نمـيز بوضوح الذنوب ذات الطابع الطقوسي بصفة خاصة:

« هل خيب أمل إلهه أو آلهته ؟!..

ألم يحضر الطقس الخاص بتقديم القربان بصورة دائمة وبمواظبة ؟!.

أما الذنوب الخاصة بالقضاء فنجد ما يأتي: -

« هل استخدم موازيناً كاذبة (تلاعب بالكيل) ؟

---

[1]- إله العدالة الذي يظهر في قمة مسلة حمورابي وحمورابي هو إذاً نائبه أو وكيله. (المؤلف)

هل رضي أخذ عملة مزيفة، ورفض أخذ العملة الحقيقية:

هل استولى على زوجة جاره ، وأسال الدم منه؟ ..»

أما الهفوات أو الذنوب الأخلاقية:

« هل سبب فصل أب عن ابنه ..؟ وصديق عن صديقه ؟

هل رفض إطلاق سراح سجين ؟ أو فك وثاق المكبل بالأصفاد ؟..

هناك قائمة أخرى خاصة بذكر الذنوب، تذكر في نفس البحث وخاصة الموسومة بعدم التحلي بالطيبة والرقة والأدب:

« خطيئة متعمدة لرفضه قرض قناة السقاية الذي طُلب منه لمدة يوم واحد، خطيئة متعمدة لرفضه إعارة إناء الماء الذي طُلب منه .. »

كل هذه الفوضى هي أيضاً خطايا ترتكب ضد الإله وبنفس الوقت ضد التنظيم والارتباط المعنوي والأخلاقي أو الاجتماعي. إنها آثام.

ومن خلال المرادفات فإن المفهوم الديني يوضح ما هو الإثم بالنسبة للبابليين: « بالنسبة للرغبة الإلهية » و « ثورة » على النظام الموضوع من قبل الإلهة وهو « إهمال » لعدم إكمال ما يجب أن يُنفذ، وهذا يجلب « غضب » الإله ويتبع ذلك فرض العقوبات ومنها « المرض » و « المعاناة من الآلام » أو الأذى بواسطة أرواح سحرية شريرة « وحمل أوزار التعاسة » وباختصار كل أنواع الأمراض الجسيمة وغيرها وهكذا نرى أن كل ما يخص مفهوم الإثم ومذهب تطبيق الشريعة يحتل مكاناً مرموقاً.

وهنا نصل إلى مفهوم دقيق، ذلك إنه من المتعارف عليه بين البابليين، كما هو عند بقية الشعوب الأخرى، بأنهم وصلوا إلى فهم معنى المسؤولية الخاصة بالقضاء واستفادوا من هذا المذهب أو الفكرة بتثبيت سنة أو شريعة ترجع أصلاً إلى معالجة الإثم والخطيئة وتنسجم هذه مع العدالة الإنسانية. وكل مخالفة أو تعدي على الحقوق الاجتماعية، إذا حقق فيها وثبتت حقيقتها فإنها تؤدي، بعد الحكم القضائي، إلى قمع وردع بنسبة الفعل، أي عقاب: وهكذا تبرر العقوبة في حالات « النقص » في تنفيذ الرغبة الإلهية وهذه تعتبر من الآثام.

إن هـذا التسـبب لـم يُنـص عليـه اعتباطـاً: فكـل « مخالفـة للقـانون الإلـهي تسـتلزم بصـورة ضـرورية عقابـاً » وبـالعكس ولتفسـير الآلام والمعانـاة. « فـالآلام والمتاعب ترجع أصـلاً إلـى خطيئـة المريض وليس مـن الممكن فهمهـا إلا مـن سـنة الإله ومتأتية من مقاومة المريض لقانونه ».

وككل البشـر فـإن سـكان وادي الرافديـن القدمـاء تسـاءلوا عـن أصـل الشـر وأصل المعاناة، جسمية كانت أو نفسية وعن الأصـل في كل ذلـك تحت شـكل عـام وهـو أصل المرض. إن التحليل العلمي لإرجاع أسـباب هـذا التسـاؤل إلـى مسـببات ثانوية حيث لم يكن هؤلاء يعرفون تفسيرها ولهذا نسجوا لها مسببات أسطورية.

إن السـومريين هـم أول مـن تصـوروا بـأن هنـاك جيشـاً جـراراً مـن الكائنـات الشريرة فوق طاقة البشـر أي أكثر مقدرة منه وأقل مقدرة وعلواً من الآلهة ولكنها تشـارك الآلهـة في العديـد مـن مميزاتـها المتمثلـة مثـلاً في (القـوة، الذكـاء، وربمـا الخلود أيضاً)، (ومرة فإن أحد هذه الكائنات الشيطانية جعل من نفسـه « ابنـاً » لإله) وذلك لتسيطر على الإنسـان وتمتلكه كفريسـة واضعـة فيـه مـا يسـبب آلامـه وتعـرف هـذه بـ « الآلهـة الشـريرة » أو « الأرواح » و « أشـباح الموتـى » ومنـها الوحشية بكل صفاتها: وتسمى باللغة الأكدية: آلو، كالو، أساكو، لاماشتو، بازوزو، نامتارو، ليلو ... إلخ. لقد قسموا هذا الجيش الجرار إلى سبعة أصناف رئيسية، أمـا ظواهرهـا وأصلها ومنـاطق سكناها و « اختصاصاتها » المؤذيـة فقـد كونـت بحد ذاتها عمـلاً خاصاً بالشياطين الوهمية المعقـدة والسـوداوية. فـإذا كـان هنـاك مريض فالمسبب هو أحد هؤلاء الشـياطين الـذي « وضـع رأسـه في رأس المريض، ويـده في يـده، وقدمـه في قدمــه » وأنــه (أي الشـيطان)، يجلـس معـه علـى نفـس المقعد، وينـام في فراشـه .. ويدخل معــه في مخدعـه، وباختصـار فـإن الشـيطان يمتلك المريض كلياً.

لقـد حـافظ السـاميون في وادي الرافديـن علـى هـذه الأسـطورة الخاصـة بالشياطين المخيفة وحتى إنهم أضافوا عليها مـا يكملها ويتمها أكثر. ومـن هـذه الشـياطين: « الجاسـوس » و « السـلاّب » .. إلخ[1]. وحتـى أنـهم ذهبـوا أبعـد مـن

---

[1]- إن تقدم الدراسات في حقل الطب تزيد من تنويرنا تدريجياً بنوع من الأسباب المنطقية والعلمية لهذا النوع من الاعتقادات الأسطورية ونجد أن كبار الأطباء في العصر الآشوري الحديث أو المتأخر لم يعتبروا هذه « الشياطين » أكثر من تسميات لشخصيات مرضية بسيطة أو أنها صور رمزية لمسببات الأمراض. (المؤلف)

ذلك آخذين بعين الاعتبار أسباب الفعاليات والنشاطات الشريرة لهذه الشياطين، لقد كانت هذه الشياطين أيضاً تحت رحمة الآلهة ولا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا بإشارة منها ويجب عليها أن تحوز على سبب وجيه لأخذ موافقة الآلهة للإيقاع بالإنسان، وهذا السبب، ربما يكون خطيئة المريض تجاه الآلهة، ويستوجب العقاب كما هو الحال في كل عصيان يقوم ضد السلطات التشريعية وذلك ما نقرأه في النص: شريو:

« وهنا يثار غضب الآلهة (بسبب الإثم)

ليت الشياطين تسرع بالمجيء وهي تصرخ ».

إن نصاً كهذا والذي يجسم نوعاً ثانياً من التثبيت للشريعة ويخص الإثم نجده موضحاً بصورة كاملة في ملحمة كلكامش (اللوح الرابع) فعند مرض أنكيدو وتساؤله بعد مرور اثنا عشر يوماً وهو طريح الفراش، لماذا هو في وضع كهذا ويخرج من ذلك بالجواب قائلاً:

« إن إلهاً قد غضب مني لأنني ارتجفت من التفكير بالقتال .. »

إن نفس الفكرة تفسر لنا أيضاً في (ترانيم التوبة) المقدرة التي كان على المرضى إنشادها وذلك « للتقليل من غضب الآلهة » ولأجل إقناعها بإلغاء عقوبتها و « تحريرهم » من نتائجها السيئة ونجد باستمرار إما اعترافاً بعدم معرفة الإثم:

« إن الإثم الذي ارتكبته، لأجهله .. »

وإما تكديساً لخطايا معترف بها:

« إن تعدد إهمالي لا يحصى .. »

« سبع وسبع مرات متعددة هن خطاياي ... »

وفي ضمير الإنسان، وحتى بدون تذكر، فإنه من المستحسن لعن الإثم الحقيقي الذي سببه كل ما هو شر وسيكون مرتاحاً لذلك.

إن الجدول الرئيس الذي يعدد الآثام في البحث المسمى « شريو » له نفس الهدف وذلك بتفصيله كل المخالفات المحتملة ومن المؤكد أنه قد جاء فيه أيضاً تلك التي لا تخطر على البال ولكنها توجد في الواقع وذلك للشعور بنتائجها المؤلمة

ويحدث أيضاً عدم إيجاد السبب، الرجوع إلى الآثام المحتملة التي تكون أقوى بكثير من الأولى أو مشابهة لها[1].

وأخيراً فإن ذكر ذلك يفسر لنا بأن البابليين لم يفرقوا بين الخطايا: فالزنى والقتل كانا بالنسبة لهم من الناحية الدينية على مستوى واحد مع الإهمال في القيام بطقس ديني وذلك لكون النتيجة متشابهة وهي إثارة غضب الآلهة وبالتالي جلب « الشيطان » ومعالجاته الشريرة على الخاطئ. وبهذا فإن الإثم أو الخطيئة لم تعتبر أبداً انتهاكاً لحرمة الآلهة نفسها وعظمتها وشرفها وكذلك لقوتها ولكن لنتائج الخطيئة المؤذية وهنا فإن فكرة « القوانين هي عقابية بحتة » مطبقة في الخلق الديني.

يفسر هذا الاجتهاد كذلك بأنهم لم يكونوا مهتمين بالحصول على رضى ومكافأة الآلهة لعمل مستقيم يكون منسجماً مع الخلق والإرادة الإلهية، وحتى الخضوع لقانون لم يكن أيضاً عذراً في انتظار مكافأة من أمير. وبدون شك فإن الاهتمام بالموازنة والمعادلة نجده من مستلزمات كل المذاهب والأنظمة فهل حث هذا المفهوم شارحي ومعلمي الديانة إلى القصد من « العدالة » بأنها عكس مما يراد بها في تهديد « الخطاة » وربما كان ذلك بالدرجة الرئيسية في عدم تشجيع وتقليد هؤلاء الخطاة:

« كل من يقوم بعمل اضطهادي وعنيف، ويسبب بشكل مقصود أذى لبلده وكذلك كل حاكم جائر يرضى بقبول الهدايا .. يوصم بالخطيئة[2]..

ولكن الذي يرفض قبول قِرب النبيذ كهدية، ويأخذ جانب الضعيف، فإنه يحصل على خيرات ورضى شمش، ويحصل على الحياة ..

وأحياناً فإن هذا المفهوم يكون أكثر نضوجاً حينما نعرف بأن إتمام الواجب يكون إكراماً للإله كما في المفهوم « أعطني حتى يعطى لك » :

« كل يوم عظم إلهك:

أكرمه بما يليق به بتقديم القرابين وإقامة الصلاة.

---

[1]- انظر مثلاً لتوضيح ذلك: الترنيمة المذكورة في ص ١٤٤. (المؤلف)

[2]- الإثم وما يتبعه من مكملات محزنة. (المؤلف)

أمام إلهك احفظ قلبك نقياً،

كما هو لائق ومناسب بالنسبة للآلهة،

الصلاة، والدعاء، والابتهال،

تقيمها كل صباح،

وسوف يكافئك الإله بالغنى ...

إن الخوف (من الإله) يولد رضاه

وتقديم القرابين يطيل الحياة ويمدها ...

إن ظاهرة مكافأة الرب لعبادة تستمر في مفعولها، ونجد في الوثائق الكثيرة الخاصة (بالتأسيس كودورو)، بأن الملك يسطر عادة قائمة تكون طويلة جداً بعض الأحيان، وفيها مفردات يتوسل بها إلى الآلهة بأن تتعرف حسب رغبتها بالنسبة لمن يتدخل في معاكسة أوامرها: ومن النادر جداً أن يذكر المرء ويتمنى ما هو خير وجيد لمن يؤيد أقواله وأعماله، وعلى كل حال يمكن القول بأن الشر ونتائجه يجلب الانتباه والانشغال أكثر: وربما تكون هذه من نتائج الحكمة الشرقية التي تنص بأنه في حالة إبعاد ما هو مؤذ فإن الحياة تكون مريحة دائماً.

من المعروف بأن الآلهة تكون « عادلة » و « حكيمة »، و « أسياد »، و « منفذة للأحكام »، ويظهر أن الآلهة ميزت تمييزاً واضحاً بين الأعمال الصالحة والطالحة للبشر: فتوجد، لكل فرد من هؤلاء، « وثائق » (رقم طينية) أو (سجلات)، لتأشير ما هو حسن وصالح وما هو شرير، وتعرف هذه الآلهة جيداً تمييز النوع الحسن التصرف من المجرم، وتعامله حسب استحقاقه. هناك إذن فكرة معينة حول الثواب الإلهي وهذه الفكرة منتشرة باتساع وتحتاج إلى إثباتات تاريخية فنجد مثلاً أن الطوفان، كحدث تاريخي، سببه آثام البشر، بنظر البابليين، وهناك مسلسلات تاريخية بابلية توضح لنا كل حقب الزمن على شكل تتابع سلالات حاكمة، وهذه من نتائج عدالة مردوخ الذي يكافئ أو يعاقب أخطاء الملوك، ونعرف قطعة شعرية تنشد لنا سقوط بابل تحت ضربات الفرس، وكان سبب ذلك عدم ورع وتقوى الملك البابلي نبونيد. نجد أحكاماً مشابهة في التوراة، في أسفار الملوك وأسفار أنبياء إسرائيل القدماء، وهذه الكتابات التي ذكرت هي بالنسبة للبابليين، تيار آخر لتفسير الحوادث في إطار ديني قبل أن يكون ذلك

لإثبات رأي صلب ومتعارف عليه بالنسبة للعدالة النقية الكاملة، أو بالأحرى عدالة الآلهة، وهذا هو السبب في صعوبة تجسيد مشكلة الشر بصورة ناضجة، كما هي مجسدة وواضحة بالنسبة للعبرانيين، ومن المؤكد أن الفرد تعذب وعانى من أجل أن يوفق بين وجوده وبين العدالة الإلهية.

إن المؤلفات الوحيدة التي تتناول هذه النقطة الأخيرة هي الترنيمة المذكورة تحت عنوان («أريد استئجار سيد المعرفة» وكان يطلق عليها أيضاً عنوان «العدالة المتألمة» وتاريخها يعود إلى عصر بابل الأول، كذلك هناك «المحاورة أو القصيدة الدائرة بين صديقين» وتاريخها أحدث من تاريخ العدالة المتألمة).

إن المؤلفين يعرضان انتصار العدالة الإلهية أخيراً، برغم ما فيهما من حوار يلمس منه وجود آراء مختلفة، إن المؤلف الأول ينتهي بتدخل عجيب من مردوخ، حيث يمنح السعادة لعبده الذي كان في أول أمره غارقاً في الأحزان والكآبة، أما الآخر فينتهي بتأكيد الأمان والاطمئنان:

« فهل إن الإله نورتا الذي لفظني، يمنحني من جديد مساعدته، ليت عشتار ترحمني بعد أن تركتني ... »

إنه من المؤكد، وخاصة بعد العصر الكاشي ظهور نوع من الحاجة إلى تفسير وتعميق المفاهيم ذات الإطارات الدينية، وإن اعتراضات واحتجاجات متفرقة ظهرت هنا وهناك ضد هذه العدالة الإلهية، وقد دفع هؤلاء المعترضون معلمي الدين البابلي بأن يكونوا أكثر تأكيداً وصرامة في مذهبهم، وطريقتهم التقليدية في ذلك، تتركز في إماتة الشكوك وجعلها معدومة كلياً. وهذه الطريقة مضمونة التجارب ومبنية على تجارب سابقة.

الموت وما بعد الموت:

قبل الولوج في دراسة وتفصيلات المشكلة الأخيرة التي تطرح نفسها بالنسبة للحياة البشرية ذات المفاهيم الدينية، يجدر بنا أن نلخص ما يقوله ويفكر به البابليون في تكوين وتركيب الإنسان، فالمعروف أنهم لم يفسروا ذلك بانتظام، ولهذا نجد أنفسنا مجبرين على تبسيط ذلك، على ضوء ما لدينا من وثائق ليست كثيرة، والتي تبحث في هذا الموضوع بالذات.

يبدو أولاً بأن البابليين مثلاً، لم يقسموا الإنسان إلى تكوينين متكاملين، كما نعرفهما اليوم بـ « الجسد والروح » ولكنهم اعتبروا الإنسان جسداً حياً، وبحثوا فقط عن مصدر حركته وحياته.

وفي هذا المجال، هناك تقليد أقدم عهداً من البابليين هو الأصل، والذي يبحث في كون مصدر حركة الإنسان وحياته في الدم ولقد تطرقنا إلى ذلك في الصفحات السابقة، عن الدور الذي يلعبه دم إله في حياة الإنسان.

ولكن مع ذلك فقد اعتُقد أيضاً، بأن التنفس وهو العلامة الأكثر حيوية للحياة، وبشكل آخر هو سببها، وإن « روح الحياة » و « الروح الطيبة »، مصيرها بيد مردوخ فهو الذي « يمنح الحياة »[1]، وهذا هو المفهوم الأصيل لكلمة (نابيشتو) التي تعني « الحياة » بكل معانيها.

وطالما أن الآلهة « تمنح » أو « تديم وتحفظ » الروح، فإن الحياة تستمر في الإنسان، وعند حدوث العكس فإن الروح تذهب معه ويتفسخ الجسد، ولا يبقى إلا عنصر غير معروف، وهو نوع من الأثير الذي لا يمكن تدقيقه، وهو غامض ومبهم وهذا هو أصل الإنسان.

إن الموت هو الحدث الكبير الذي يفرض نفسه على الإنسان، وهو مصيره الذي لا يتبدل:

امرأة تمنح نفسها لرجل بطريقة يخصبها ومن ثم: الموت! إنها رغبة الآلهة - وهو المقدر، انطلاقاً من كون الإنسان في حضن أمه فالموت سيكون مصيره .... (ملحمة كلكامش، اللوح الثاني).

ما هو سبب هذا المصير؟ هذا ما تطلبه الإلهة آرورو، خالقة الإنسان، من الإله آنو، كبير الآلهة:

« ما الفائدة إذاً من هذا الذي خلقناه هل كان مقرراً

أن يموت كل ما منحناه للإنسان؟ .... »

---

[1]- قارن ما يذكره في رقيم الطين « المحفوظ في المتحف البريطاني » وهذا نصه: ليتني أحيا بنفس منك ... (المؤلف)

لقد جرب البابليون، ومن قبلهم السومريون، أن يجيبوا على هذا التساؤل المقلق بعدد الأساطير، محاولين بذلك تفسير الحياة والوجود غير المحدد، بأنه من ميزات الإله وحده. وهذا ما نراه مثلاً في أسطورة أدابا التي تسرد كيف أن الإله آنو بعد أن قرر منح الخلود إلى الإنسان - الأول؟، أعطاه نوعاً من الطعام والشراب، ونجد أن الإله إيا بدافع الخوف أو الخبث، ينصح هذا الإنسان أن يرفض الطعام والشراب، وأدى ذلك إلى موت أدابا.

إن ملحمة كلكامش تعالج بتفصيل نفس المشكلة، مشكلة الموت: كلكامش كان يعرف، بادئ الأمر، أنه لا يوجد إنسان يستطيع الهروب من الموت، ولكنه أراد على الأقل أن يسمو بطريقة ما وذلك بأن جعل لنفسه اسماً خالداً خلال مغامراته الكبيرة، وهذه الفكرة تذكرنا بما ذهب إليه الإغريق من خيال، ويتجسد ذلك في قرار بيلوبس[1] بما سيفعله في أول دورة أولمبية، وقد ورد وصفها على لسان بيندار الشاعر الإغريقي المتوفى في عام ٤٣٨ قبل الميلاد:

« طالما يجب علينا أن نموت

فلماذا نجلس في الظلال

ونجر أذيال عمر طويل من غير ما نفع ولا انتصار ...؟ »

إن أنكيدو صديق ورفيق كلكامش، وهو يقترب من نهايته، يجلب الرعب إلى قلب كلكامش بسبب هذه النهاية للوجود البشري، وقد جرب كلكامش أن يتلافى التفكير بالموت وذلك بانغماره في نشوات مخاطراته، وجاهد بعد ذلك للوصول إلى طريقة تنجيه منه ويذهب إلى أتونا بشتم الذي يعني اسمه سيد الحياة، وهو بطل الطوفان الذي جعلته الآلهة خالداً (اللوح التاسع)، وخلال سفره يلاقي صاحبة الحانة المسماة سيدوري التي تحاول أن تثبط عزمه في مرماه غير المجدي:

« أو، كلكامش، لماذا تهيم على وجهك بهذه الصورة في كل مكان ؟

---

[1]- بيلوبس هو ابن تانتال ملكة ليديا، ذبحه والده وقدمه كوليمة للآلهة في قصره والإله ديميته هو الإله الوحيد الذي أكل منه وبعد ذلك أرجع زوس الحياة إلى بيلوبس وجعل له كتفاً من العاج بدل كتفه الذي أكله ديميته، وقد جاء بيلوبس بعد أبيه في حكم بيلوبونيس. (المترجم)

إن الحياة التي تتمناها سوف لن تحصل عليها أبداً:

فعندما خلقت الآلهة البشر،

فإنها قدرت الموت على البشرية،.

واستأثرت هي بالحياة ... » (اللوح العاشر).

ومع ذلك فإن كلكامش يتابع مسيرته وينتهي بالحصول من أتونا بشتم على السر، سر الحياة، القابع في قعر المياه الجوفية الداخلية (الإبسو) وهذا السر هو عبارة عن نبات الحياة، وهو شوكي وذو نهايات حادة جداً وبواسطته يصبح الإنسان سيد روح حياته، (اللوح الحادي عشر). وينتهي كلكامش بالحصول على هذا النبات المدهش والذي هو سر الخلود. ولكن في لحظة إهمال تستولي أفعى على هذا النبات إلى الأبد: وبالنتيجة فإن عذابه وتعبه يذهبان هباء بدون أن ينتج ويفلح في طرد الموت.

هكذا إذن هو القانون العام غير القابل للتبديل، وفي الواقع فإن خيالية هذه الأسطورة الشعرية تصور بأن الآلهة اشتدت وأنعمت على بعض البشر القدماء، مثل أتونابشتم بطل الطوفان وملوك آخرين من فترة ما قبل الطوفان، مثل (دموزي) الذي أصبح إلهاً (انظر ص ٥٠)، ونفس كلكامش أيضاً، ولكن هذه الحالات الشاذة والخاصة كانت نادرة جداً، والغاية منها تعزية الإنسان بمصيره، وترمي إلى « التعليم بأخبار الأولين » قبل أن تكون من مكونات العلوم الدينية، وما يختص بالدين بكل معنى الكلمة، ونجدها فوق ذلك، أنها فقدت فعاليتها بالنسبة للآخرين من البشر بصورة عامة: وما نجد في العصور التاريخية حتى عصر حمورابي من ملوك ألهوا في بعض الحالات أو قبل أو بعد مماتهم، لم يكن القصد من ذلك الاعتراف بخلودهم، بل التأكيد على عظمتهم وبأسهم فقط، وذلك لإسناد نوع من الرتب الخاصة بالآلهة، إليهم.

فهل كان الموت، بحد ذاته مرغوباً فيه؟ وهل يفتح أبواب السعادة للإنسان؟ إذا كان كذلك فإن البطل كلكامش لم يتوجب عليه أن يرتجف أمامه! أما بالنسبة للبابليين بصورة عامة، فإن ما بعد الموت لم يكن مغرياً لهم، ولم يكن أملهم وهدفهم الأوحد. صحيح أنهم مثل كل الشعوب، كونوا فكرة غير واضحة وغير أكيدة عن الموت ولكن المفهوم الذي يبرز في هذه الفكرة هو السوداوية والسلبية،

وحتى أننا نجد في أسطورة نزول الإلهة عشتار إلى العالم السفلي، فعلى الرغم من أن موضوع هذه الأسطورة يبحث في شيء آخر تماماً، ومن المناسب ذكره هنا، ففي هذه الأسطورة، وردت تعابير غير شيقة أبداً عن حالة الموتى التعسة، بضمنهم حالة ملكة الموتى وهي الإلهة أريشكيكال:

« إن طعامهم هو من الطين وإن غذاءهم هو التراب،

لا يرون النور أبداً، فهم يسكنون في الليل ... »

وحتى أن عشتار نفسها ليس لها القابلية أو الحق في الدخول بين هؤلاء إلا بعد أن نزعت كل ما يسترها من ملابس وغير ذلك قطعة بعد أخرى، وأصبحت على صورة العري الكامل الذي يستلزمه الذهاب إلى هذا العالم[1].

وتوضح لنا أيضاً ملحمة كلكامش، عند موت أنكيدو، تفاصيل مرعبة عن حالة الموتى:

« إذا شرحت لك أحوال العالم الأسفل الذي أعرفه الآن،

فسوف يجعلك ذلك تجلس وتبكي ....

فما كان عزيزاً عليك، وما كنت تحبه وما كان ينعش قلبك

أصبح الآن أشبه بعود المغزل المتآكل من الديدان...

والجميع غرقى في التراب ».

(اللوح الثاني عشر)

وبعد ذلك هناك تمييز بين « الشهيد الذي يسقط في المعركة » والذي يجعل رأس أبيه وأمه عالياً، بينما تحيط به ذراعا زوجته، وبين ذلك الذي تركت وأهملت جثته على الأرض، ذلك الذي ليس له من أحد يقيم له العزاء وطقوس الدفن، وهؤلاء سوف لن يرتاحوا في العالم السفلي، وسوف لن يجدوا هناك ما يقتاتون به سوى فضلات المطابخ، و « الفضلات التي ترمى في الشارع ».

---

[1]- يرد في التوراة سفر (أيوب: ١، ٢١): الذكر التالي: « عرياناً خرجت من جوف أمي وعرياناً أعود إلى هناك »، ويقصد بذلك إلى الأصل الذي جاء منه، ويرد نفس المفهوم في القرآن الكريم أيضاً. (المترجم)

بقي عندنا هم آخر وانطباع قلق ومحزن حول فكرة الغموض في هذه الظلمات الموجودة تحت الأرض، ومع ما تقدم فإن مصيراً كهذا، سيظل غير معروف وليس له مخرج، فلا يمكن العودة أو الرجوع من مملكة الأموات وهي، البلاد التي لا عودة منها.

إن خروج بعض هؤلاء الأموات لأعمال شريرة ومخيفة بين البشر لا يعتبر إعادة ثانية إلى الحياة، وعندما تُمجد الآلهة، وخاصة شمش ومردوخ، فإن هذا « ينعش الموتى »، وهذا بالواقع هو رغبة من هؤلاء في الشفاء من أمراض خطيرة، وهم على حافة الموت، فيمجدون الآلهة لتعيد إليهم بعض قواهم ونشاطهم. إن فكرة أو مفهوم عودة الحياة عند البابليين، لم تكن عميقة البحث والاهتمام، ولم تكن كذلك أيضاً عند الآشوريين وحتى الإغريق.

لعله من المفيد أيضاً أن نذكر وجود تمييز واضح في عالم الموتى، وهذا يعتبر نتيجة منطقية متأتية من النظام المتخيل للعالم السفلي، وملك هذا العالم نركال، وملكته أرشكيكال مع كل توابعهم، إضافة إلى الطبقات الاجتماعية الموجودة فيه، ونزلائه من المواطنين. إن هذا التمييز نراه واضحاً في اللوح الثاني عشر من ملحمة كلكامش، والمذكورة سابقاً، ويمكن أن يفهم منها بشكل أوضح ما معناه:

إن هناك: « أمواتاً عظماء وأمواتاً حقراء »، أغنياء وفقراء وبالنتيجة سعداء وتعساء. ويمكن أن يكونوا قد تخيلوا أكثر من ذلك: حيث تصوروا بأن هناك حساباً يكافأ به ذوو الأعمال الصالحة على حساب الأشرار، وهذا متعارف عليه بين المصريين القدماء أيضاً.

نقول أخيراً إنه لم توجد، عند سامي وادي الرافدين بصورة عامة « ألغاز » دينية مشابهة لما عند الإغريق والتي ساهمت في تطمين الجماهير بالسعادة المنشودة في العالم الآخر أو الحياة الأخرى.

وتجاه الأوصاف السابقة الذكر، فيفهم بأن الحياة بالنسبة للبابليين من أعظم وأكبر الآمال، ونعرف منذ العصر السومري، بأن الملوك والخاصة الذين أقاموا المعابد وجهزوا الهدايا للآلهة عملوا ذلك بكل وضوح « خوفاً على حياتهم »، وحتى تكون هذه الحياة طويلة الأمد، وهذا هو الهدف الذي ينشده الورعون الأتقياء من رجال الدين أيضاً: « فتقديم القرابين للآلهة يطيل العمر » وكذلك « من يحترم ويعظم الـ آنوناكي فإنه يطيل بذلك إيامه ».

ونجد أن أسماء الأشخاص تعبر غالباً عن العبادة وهدفها إدامة الحياة، ومثال على ذلك، اسم (شمش ـ بوليطاني). الذي يعني: (او، شمش ـ أعطني الحياة). وكذلك نجد الأختام الأسطوانية بما فيها من أساطير[1] في نقوشها وكذلك « الأواني ذات المياه الفوارة »، وهي مياه الحياة، نجدها غالباً في أيدي إله أو إلهة، وبالعكس نجد بأن رجم الأشرار والتمني لهم « بأيامٍ قصيرة »، يعتبر حظاً سيئاً وطالعاً مخيفاً.

هذا العشق والحب للحياة وهذه الكراهية واليأس تجاه الموت، يقود مباشرة إلى التفتيش عن اللذات الدنيوية. وسبق لصاحبه الحانة سيد وري أن أفهمت كلكامش بذلك، بعد أن نعته بالجنون، وبعدم جدوى بحثه عن الحياة الدائمة:

« ما عليك يا كلكامش، إلا بعد أن تملئ بطنك،

وافرط في طعامك وشرابك ليل نهار:

ولتكن كل ليلة فرحاً في بيتك، ليل نهار، املئ رغباتك

استحم وضع عليك ثياباً مطرزة واسكب من العطور فوق رأسك

وافرح برؤية طفلك وهو يشد نفسه إليك

والتذ بمغازلة زوجتك ... »

(اللوح العاشر)

هذه هي فلسفة « سامیي وادي الرافدين »، وخلاصة عقلانيتهم، ونجد أن معاناتهم تبرز بشكل كلي ولم يدخلوا الدين في هذه الطريقة في محاولة فهم وهضم الحياة البشرية، وأما بالنسبة للديانة، فحسب ما نعرف، بأنهم لم يثبتوا أي حماس تجاه العالم الإلهي، أن يعينهم معنوياً ويملأ دواخلهم.

وهذا « الشعور بالبعد » تجاه الآلهة كان حاداً بالنتيجة، وأخيراً فإن الديانة البابلية لم تتحول إلى صوفية أبداً، ولقد حددت دائماً بالعبادة، وإقامة الشعائر بكل التزاماتها.

---

[1]- هناك كتابة على ختم أسطواني محفوظ في متحف اللوفر يقرأ فيه ما يأتي: « بكلام سن ومردوخ، آلهتهم وأسيادهم، الذي يرسم (هذا الختم) يشبع بالحياة » (يتخم بالحياة). (المؤلف)

الفصل التاسع

طقوس العبادة

المعابد

إن مكان العبادة الرئيس، وبصورة خاصة لعمل طقوس العبادة، هو المعبد بالنسبة للبابليين ويسمى مجازاً « البيت » (ويطلق عليه في اللغة السومرية: É وفي اللغة الأكدية بيتو: bîtu) الذي يعني « سكن » أو محل إقامة الإله. وهذا المكان بالذات هو المحل الطبيعي لإقامة الإله على الأرض، إذ يعتبر وكأنه في بيته. تحت هذا العنوان، وتأكيداً للفكرة المطبقة حول مفهوم الإله - الملك، فقد كان المعبد - عملياً أشبه بالقصر، وغالباً ما كان يحصن ويصبح بالنتيجة مركز المدينة، ويفوق عند ذلك في أهميته نفس قصر الملك الحقيقي.

وحسب مفهوم الدين عند البابليين فقد تم خلق البشر في العالم لتمكين الآلهة من الإقامة في أماكن محببة إلى نفوسها، وكان كل هم الملوك تجاه ذلك أيضاً هو الإكثار من الأبنية والبناء، وإقامة المعابد والاعتناء بتزويقها وتجميلها، ونجد أن حمورابي يذكر في مقدمة مسلته ويعدد بفخر كل المعابد التي كرس لها اعتنائه، وكذلك فإن معظم الكتابات الحكومية في كل عصور تاريخ وادي الرافدين تذكر للناس وتُذكرهم بأن الحكام شيدوا المعابد وأعادوا بناءها أو جملوها، وإن هذا المعبد أو ذلك مكرس لتعظيم هذا الإله أو ذاك، واتخذوا هذا الذكر عنواناً ورمزاً لعظمتهم وانتصاراتهم.

وبالضبط، مثل اختلاف الأبنية الدينية في عصرنا الحاضر، فقد اختلفت الأبنية الدينية البابلية، فهي تتدرج من الأماكن الصغيرة جداً والمعزولة، حتى الأبنية الكبيرة، وخاصة تلك المكرسة إلى إله المدينة الخاص أو الإله القوي، التي هي في هذه الحالة عبارة عن مجموعة كبيرة من الأبنية كما هو بالنسبة إلى معبد مردوخ في بابل حيث يغطي مع ملحقاته مساحة من الأرض تقرب من ستة عشر ألف متر مربع.

إن هذه المعابد الكبيرة تحمل عادة اسماً سومرياً، فنجد مثلاً اسم اى ـ آنا، ويعني « معبد السماء » (وهو معبد الإله آنو في الوركاء) وهناك أيضاً اسم: اى ـ كور الذي يعني « معبد الجبل » (وهو معبد الإله انليل في نفر) ...

لم يكتف الساميون باقتباس أسماء المعابد من السومريين بل اقتبسوا منهم أيضاً المخطط العام لهذه المغابد، إنها ترتفع على أرضية محاطة بجدار محصن على الأغلب، ويحدد الجدار هذه المنطقة المقدسة بأنها تعود للإله، وهي ملكه المباشر (وأطلق عليها الساميون « منطقة الحرام »). وفي داخل هذا الجدار تنتشر معابد ثانوية صغيرة مفصولة عن بعضها بساحة أو فناء، إن هذه المعابد الصغيرة مكرسة لعبادة الآلهة الثانوية وتحيط عادة بالمعبد الرئيس والكبير جداً، وهو يتكون بدوره من بنائين ضخمين: المعبد الرئيس والزقورة أو (المعبد المدرج) التي تبنى عادة في إحدى زوايا الجدار المحيط، والزقورة على الأغلب، هي الشكل القديم أو المخطط الأول للمعبد، أما طوابقها التي تتدرج كل واحدة فوق الأخرى وأصغر منها، فتكون من ثلاثة إلى ثمانية طبقات وترتفع بذلك إلى علو يقرب من مئة متر، هكذا كانت في الأصل زقورة الإله مردوخ في مدينة بابل، وهي، مثل الجبل تربط السماء بالأرض، ومن هذا المفهوم يأتي اسم زقورة الإله مردوخ في بابل هو: (اى. تيمن. آن. كي) وتعني « مكان أساس السماء والأرض »، وفي قمة الزقورة توجد غرفة خالية تسمى كيكونو وتعني « المكان المخصص للنظر »، وتعتبر هذه الغرفة المدخل إلى البيوت السماوية في السماء، وتعتبر أيضاً الممر الذي يسلكه الإله في نزوله إلى الأرض، تعتبر كذلك محلاً لاستراحته قبل أن ينزل عن طريق المدرج الضخم الطويل الذي يقوده إلى الأسفل أي إلى الأرض. في أسفل الزقورة على الأرض يكون المعبد وفيه مراكز (قدس الأقداس) ويحظر على المتعبدين الدخول إليه، وفي هذا المركز وفوق منصة أو علوة، يوضع الإله الرئيس ممثلاً برمز وهو تمثاله ويحيط بهذا التمثال الرمز تماثيل أخرى ترمز وتكون حاشية له، وتوضع هذه فوق الأرضية المحاذية لكل من الجدران من الداخل، وفي الفراغ الوسطي توضع مناضد ـ المذابح، الأواني الخاصة بحرق البخور، وشارات توضع للآلهة فوق حمالات خاصة، كما توضع كذلك المسلات والأدوات الثمينة المهداة إلى إله المعبد. أما أمام ما نسميه « قدس الأقداس » فتوجد « فسحة » فيها دكات للمذابح وأواني لحفظ الماء المقدس.

يحيط بقسمي المعبد الرئيسيين مجموعة كبيرة من الغرف وكذلك مجموعات من الأبنية بساحاتها وممراتها ومخازنها ومرافق أخرى، وهذه هي ملحقات المعبد، ويمكن إضافة محلات خدم المعبد ومحلات المؤونة والمكتبات ومحلات سكنى العديد من الأشخاص ذكوراً وإناثاً، وهم جميعاً توابع وينقسمون إلى مراتب مجهزين لخدمة المعبد.

وكلاء وكهان العبادة:

هناك طبقة من الكهنة تتدرج في اختلافاتها مثل تدرج كهان عصرنا الحاضر في المراكز والمراتب.

إن الحبر الأعظم بينهم هو دائماً الملك بشخصه وهو « ابن » و « صورة » الإله، وهو وحده الجدير القادر على إنجاز المهمة كوسيط بين عالم البشر والإله. ومع أنه ظل محتفظاً لنفسه بمراكز دينية حساسة، وخاصة في أوقات الاحتفالات والطقوس الدينية، فإنه كان مجبراً في النهاية وبالقوة على ترك هذه المناصب إلى الكهنة.

هؤلاء الكهنة كانوا مقسمين إلى عدة طبقات، وامتيازاتهم وواجباتهم كانت وراثية، ولم تكن هذه المهنة محصورة بجنس واحد وإنما جمعت بين الجنسين وبعض المناصب مثلاً، كانت محصورة بجنس، دون الآخر، وهذه المناصب ليست دائماً واضحة ومفهومة بصورة كاملة بالنسبة لنا، وخاصة في تفاصيلها الدقيقة.

إن رجال الدين أو الكهان الذكور اختصوا بالطقوس بكل معنى الكلمة، وكذلك بطقوس العبادة والطقوس الخاصة « بالأسرار المقدسة » ويتكون هؤلاء الكهان عادة من:

آ ـ أصحاب الرتب العالية ولا نعرف امتيازات كل واحد منهم بالتفصيل ونعرف فقط: الـ (إينو) ويعني على الأكثر (الحبر الأعظم)، وهناك الـ (ماخو) ويعني (الرئيس)، وشانكو وهو اسم عام يطلق على الكهان من الطبقة العالية ويمكن تسميتهم: (رؤساء الكهنة)، وهذه التسميات بمجموعها ألقاباً ترمز إلى رجال الدين ذوي المراتب العالية والإدارية.

ب ـ رجال الدين الذين يقيمون القداس في الاحتفالات المختلفة وعندنا من تسميات هذه المرتبة، الـ (أوريكالو) ويعني « حرس » بالمفهوم الديني ويظهر أنهم كانوا يحتلون مكاناً كبيراً في الطقوس حسب ما نعرفه عنهم مثلاً في الاحتفالات الدينية الخاصة بعيد رأس السنة أو السنة الجديدة.

فقد كانوا يؤلفون موكباً كبيراً يسير باتجاه المعبد، ويعتبرون هم المنفذين الرئيسيين للطقوس ويسمون « مقيمي الطقوس الدينية ».

جـ ـ رجال الدين ذوي المراتب العليا من الدرجة الثانية، وكل من هؤلاء له اختصاص معين، فعندنا مثلاً جماعة الماشماشو والأيشيبو، وهم « المطهرين »، وهناك « المغسلين » أو « المعمدين »، ويطلق عليهم اسم (رامكو)، ثم هناك « عمال دهونات المسح ». ويسمون: (باشيشو)، ويمارس كل هؤلاء أعمالهم واختصاصاتهم أمام أشياء مقدسة وأمام تماثيل الآلهة. هناك أيضاً طبقة من هؤلاء يطلق عليهم اسم (المتدربين) : (ماره ـ أوماني) ويحتمل أن يكون هؤلاء جماعة من التلاميذ الدينيين، ويقبلون خلال مدة تحضيرهم ومشاركتهم لعمل الطقوس مع المختصين بعملها.

من هذه الطبقة رجال يساهمون في إقامة الطقس الديني بمشاركتهم في الإنشاد أو عزف الموسيقا: (نارو وزاميرو) وتعني تراتيل و « مزامير ».

من هؤلاء أيضاً طبقة أكثر شهرة في مجال الترتيل، واختصاصهم البكاء و النحيب، ويسمون (كالو)، ويصاحب هؤلاء الضرب على الدفوف والسنطور والمزامير، حيث يلحنون الترانيم المنشدة لتطمين قلوب الآلهة « المتهيجة غضباً بسبب آثام البشر المؤمنين ».

د ـ المختصون بطقوس معينة وخاصة طقوس: « الأسرار المقدسة » ومن هؤلاء المختصين بطرد الأرواح الشريرة وتأثيراتها، ومنهم أيضاً السحرة والعرافون ذوو الاختصاصات المتعددة في هذا المجال ويسمون: بارو، شانيلو، زاكيكو ... وبمرتبة أقل من هؤلاء يأتي ترتيب جماعة الخصيان والمرضى جنسياً ويسمون (آسينو، كوركارو) ويقوم هؤلاء بأدوار ثانوية في مختلف الاحتفالات الدينية وبينهم حتى البغاة المقدسون.

إن البغاء المقدس، حيث يعتبر واجباً مقدساً ضم كهاناً ذوي مراتب عالية وبصورة خاصة بين الكاهنات وكلمة: (كاديشتو) وتعني: « محظيات المعبد المقدسات »، وهناك أيضاً الـ (ناديتو) وتعني « العاقرات »، وهناك أيضاً « بنات اللذة » و « الباغيات » وبما يتوفر لدينا من تسميات كثيرة لأعمال الكاهنات واختصاصهن، يمكننا أن نتصور الكيان الكبير الذي كوّنه في هذا المجال. ويجب أن نعرف بأنهن لم يحطن بأي احتقار، وهذا النوع من النساء أو الفتيات كن « مقدسات » وتقيات دينياً بكل معنى الكلمة. إنهن يقلدن بأعمالهن إلهتهن الرئيسة في هذا المجال وهي الإلهة عشتار، وبممارستهن لهذا الواجب فإنهن يثبتن قدسية عملية التناسل والولادة. نلاحظ كذلك أن ظروفهن الاجتماعية بصورة خاصة مثبتة ومؤمنة قانونياً، وتعتبر هذه الطبقة من النساء ضمن الطبقات الاجتماعية الرفيعة. إن سكناهن عادة في أماكن خاصة تشابه إلى حد كبير الأديرة المعروفة عندنا اليوم، وربما تحت إشراف مديرة كاهنة تسمى إينتو، وإلى جانب مركزها كمديرة ـ كاهنة ـ فإن لها مرتبة كبيرة: حيث تمثل وتأخذ نيابة مكان الزوجة الإلهية لإله ما وبصورة خاصة في المناسبات التي تستدعي حضور محظية مقدسة ذات رتبة عالية.

إن الانخراط في سلك الكهانة وخدمة المعابد تستدعي من المتقدم أن يكون ذا ولادة شرعية وصحيح البدن. وكان يسمح للكهان بالزواج مثل كل الناس، وكانوا يحضرون لملء المنصب المعين لهم بعد أن يدرسوا لمدة طويلة نسبياً في المعبد الذي يمثل مركزاً ثقافياً رئيساً في المدينة، وضم مكتبات ضخمة تحوي رقم الطين الخاصة بتعاليم الدين وقواميس خاصة بالعبادة، وكذلك تحوي بحوثاً في كافة العلوم، ولكنها خاضعة لتأثير الدين، فهناك البحوث الخاصة بالتعليم الديني والمفاهيم الأسطورية والأخلاقية، وتحوي المكتبات كذلك بحوثاً في الطب والفلك حيث أصبحت، الزقورات بالمناسبة، مراصد رائعة في هذا المجال من العلم المتقدم جداً عندهم.

لقد كان على كل فرد من أفراد هذه المجموعة الكهنوتية أن يعتمد في معيشته اليومية على نشاطه الخاص والذي يرتبط بعدئذ بعوائد وواردات المعبد الغني جداً من الناحية المادية، ويعتبر المعبد مركزاً مالياً أيضاً وبنك الدولة بنفس الوقت. لقد كانت ضرائبهم وقروضهم ذات « عوائد » ضخمة. وكانت ممارسة مثل هذا النوع من الصيرفة والتجارة المالية مهنة حرة ومربحة جداً. هذه

الممارسة مثل الدين تُمارس قيادتها من الناحية التطبيقية من قبل كبار رجال الدين حيث تفسر وتوضح لنا بأن الاهتمام الأول والشغل الشاغل لرجال الدين، كان مادياً بالدرجة الرئيسة، ومع ذلك فبين هؤلاء بدون شك نجد المعلمين الصحيحين للدين والذين يغفل ذكرهم تعمداً، هؤلاء هم الذين تعمقوا في الدين، ونماذج مؤلفاتهم الخاصة بالأساطير وغيرها تُظهر لنا شعوراً وإيماناً دينياً عميقاً وأفكاراً عالية ورفيعة جداً.

إن الصفة المميزة الظاهرة والممثلة للدين في وادي الرافدين تجمعت بالدرجة الرئيسة بين الكهنة ومثل ذلك مثل كل ديانة ظهرت بصورة « رسمية » ومرت عليها مدة زمنية طويلة.

إننا لا نعرف الكثير عن الملابس الخاصة المستخدمة من قبل هؤلاء الكهان، ولكننا نعرف جيداً أن ظهورهم كانت عارية في العصر السومري، ولم يكن الساميون يظهرون بنفس المظهر، فقد كانوا يضعون على أجسادهم ألبسة مصنوعة من الكتان تمتاز بألوان مختلفة، فنعرف مثلاً أن الملابس الحمراء كانت توضع على أجسامهم أثناء الاحتفالات الخاصة بالتكفير عن الذنوب، كذلك فإن بعض الكهان كانوا يضعون فوق رؤوسهم وفي مناسبات خاصة نوعاً من القلنسوة الهرمية والمدببة من الأعلى.

وكان هؤلاء يبدون حليقي الرؤوس والوجوه، وتعكس لنا بعض المنحوتات الجدارية الآشورية، استخدامهم أقنعة على وجوههم تصور حيوانات.

أحكام الطقوس:

وأهم هذه الأحكام الرئيسة كانت « محادثة » أو « محاورة » الآلهة ثم إقامة الصلوات.

آ ـ محادثة الآلهة ـ نتيجة للمفهوم التشبيهي العميق بالنسبة للآلهة، حسب رأي السومريين والبابليين، فإن تقديم « القرابين » على اختلافها والضحايا تفسر بصورة عامة باقتناع هؤلاء بالهيمنة الإلهية على كل الأشياء، والتي أخذت بعد ذلك شكلاً من أشكال « المحاورة » مع الآلهة.

إن الآلهة، مثل البشر، عليها أن تأكل وتشرب وتضع عليها الملابس وتقوم بالنوم والاضطجاع، والواجب الرئيس بالنسبة للعباد الصالحين هو تجهيزها بكل حاجاتها بصورة تفرح قلوبها.

وبهذه « المحاورة » (دولو) فإن تماثيل الآلهة تكون هي المُخاطبة بصورة اعتيادية أو حتى رموزها وعلاماتها: لقد وُجد الكثير من هذه الرموز والعلامات والتماثيل في الأماكن المقدسة من المعابد، وهي غرف الآلهة الخاصة. إن الواقعية التي عولجت بها هذه الأشكال أو الرموز للآلهة كانت كما لو أنها هي نفسها الآلهة، ويبرز ذلك بصورة خاصة مثلاً في سرقة الآلهة، ويتم ذلك بسرقة تماثيلهم أو رموزهم من المدن المغلوبة، ويسرد لنا الملك الكاشي آكوم - كاكديم، الذي نصب من نفسه ملكاً على بابل، كيفية إرجاعه لتماثيل الإله مردوخ وساربانيت من بلاد خاني بعد أن سرقها الحثيون من بابل العاصمة بعد غزوهم لها. تحت تجسيمات الآلهة المادية، وهي التماثيل، فإن هذه الآلهة كانت تتزين بملابس، وعندنا كتابات دينية من مدينة سيبار مثلاً، وهي ترقم لنا قائمة بالملابس الخاصة بالإله شمش مرتبة حسب أشهر السنة ...

لقد كانت الآلهة تظهر وهي تتجمل بالجواهر، وتحرص على الظهور بمظهر أنيق جداً، وتتميز عن البشر: ونذكر هنا مثلاً من الكتابات المسمارية شروحاً غزيرة للمظهر الخارجي للإلهة ننكال، وفي هذا النص الكتابي الذي يرجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد والذي عثر عليه في سورية، يذكر بعض الحاجيات من أملاك هذه الإلهة، أساور ومحابس وحلقات، خمس واقيات للنحر (وهي عبارة عن غطاء للرأس والرقبة) ومجموعة من الحلي المجملة للصدر، أربعة حمالات للصدر على شكل علامة الضرب، ثمان وخمسون قلادة، وكل هذه الحاجيات مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة أهديت لهذه الإلهة من قبل عبادها.

عندنا أيضاً كتابات هي عبارة عن شروح أخرى تصف لنا كنز (إله الملك) وهو على الأكثر إشارة إلى الإله شمش، إن هذه الشروح تعدد لنا بنفس الصورة مجموعة من الآنية الثمينة المصنوعة من الذهب ومن الفضة تصل أوزان بعضها حتى العشرين والأربعين كيلوغراماً.

ومن كتابات الملك سرجون الثاني الملك الآشوري (٧٢١ – ٧٠٥ قبل الميلاد) وفي كتاباته عن رحلته العسكرية المسماة بالرحلة الثامنة، يذكر بين ما غنمه من منطقة أوراتو: « أريكة فراش مصنوعة من العاج وفراش من الفضة محلى بالجواهر والذهب، وفراش استراحة للآلهة ».

وتخبرنا الرسائل المكتوبة من العصر الآشوري المتأخر عن طرق تحضير وعمل الفراش المخصص للإله نابو والآلهة تشميتو زوجته، وكذلك عن تفاصيل غرفة نومهما، وفي هذا الطقس الديني الخاص بـ (الزواج المقدس) الذي هو في الأصل تقليد ومفهوم سومري، نجد أن الإله وزوجته لم يعمل لتمثيلهم والرمز إليهم بوساطة التماثيل فقط، وإنما كان شخص الملك أيضاً هو الممثل أو الحبر الأعظم من رجال الدين أو كهنته ....

لقد كانت هذه الآلهة تتنزّه على الأرض أو فوق الماء وكان لها حمالات ... وعربات وقوارب خاصة. لقد كان الطقس الخاص بتطويف وحمل الآلهة للتنزه معروفاً لدى عباد الآلهة في وادي الرافدين.

لقد كان الطعام يقدم للآلهة مرتين في اليوم على الأقل ويصل إلى أربع مرات، ولقد كانت منصة الذبح الموضوعة أمام الآلهة تستخدم أيضاً لوضع أصناف الطعام اليومي عليها[1]. إن وجبات الطعام كانت تحوي أطيب الأنواع إضافة إلى الولائم الواسعة، وكل ما يتناوله البشر كذلك، مثل اللحوم، وخاصة لحوم الخرفان ولحوم العجول والخنازير المحضرة جيداً والمطبوخة والأسماك والمخضرات وكذلك الحبوب والطحين والفواكه والعسل والحلويات، ومن الشراب: الماء والحليب والنبيذ والبيرة يصاحب ذلك تبخيراً بالروائح العطرة، القصد منها إرضاء وملاطفة حاسة الشم للآلهة.

إن هذا النوع من القرابين المكونة من وجبات الطعام الفاخرة بأنواعها والمقدمة على المذبح « طاولة الإله » لا تلمس بطبيعة الحال من قبل التماثيل الجامدة الممثلة للآلهة وتكون بعد انتهاء الطقس، كما هو واجب، من حصة رجال الدين الكهنة حيث تلتهم من قبلهم.

---

[1]- يقارن ما عند العبرانيين من طقس مشابه لذلك: انظر سفر دانيال، ١٤، ٢ – ١٤. (المؤلف)

لقد كان تحضير الولائم المنتظم مصحوباً بطقوس خاصة بتنظيف القرابين. كذلك تنظيف « التماثيل الإلهية » وغسل أفواهها. ونملك نصاً مكتوباً بالكتابة المسمارية يشرح لنا بتفصيل الخدمة اليومية الخاصة بتقديم المأكولات للإله آنو في الوركاء حسب الطقوس المتعارف عليها والتي ظلت مطبقة حتى عهد السلوقيين، وتذكر لنا التفاصيل حتى الأواني المقدسة، ونذكر هنا مقدمة هذه الشروح الخاصة بتقديم المشروبات:

« كل يوم وطوال السنة يحضر فوق مائدة الإله آنو ثمانية عشر كوباً من الذهب وذلك لوجبة الصباح ما عدا الأكواب الخاصة بسكب الماء المقدس إكمالاً للطقس. (ترتب الثمانية عشر كوباً على المائدة كالآتي):

سبعة في جهة اليمين: ثلاثة لشراب البيرة المستخرجة من الشعير، وأربعة

للبيرة المسماة (لابكو)، ثم كوباً مخصصاً للبيرة نوع (ناشو) وآخر

للبيرة (زاريابا) ثم الحليب في كوب من حجر الألباستر.

وتوضع أربعة أكواب من الذهب لعصير العنب (النبيذ).

وهذه كانت تقدم في وجبة الصباح كذلك ضمن وجبة الغداء والعشاء، ما عدا الحليب الذي كان لا يقدم للإله آنو في هاتين الوجبتين الأخيرتين ... »

هذه الوجبات من القرابين كانت تقدم أيضاً إلى بقية الآلهة، حتى خارج أوقاتها المرسومة، وفي أماكن أخرى غير المعابد، لقد كانت تقدم أيضاً خلال حملة عسكرية كما نرى مثلاً الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٨ ق.م) يعمل قرباناً للآلهة من هذا النوع على شاطىء البحر ولكن المكان الرئيس لتقديم وجبات الطعام يظل دائماً في المعابد وتكون الطقوس الاحتفالية لكل وجبة الفعل الرئيس من « واجبات التعبد » اليومية.

وهذا كان مفهوم القربان والضحية بالنسبة للبابليين إنه محاورة وتقرب من الآلهة وكل واحد منهم كان يتظاهر بعبادته بتقديم الهبات من كل نوع إلى هذه الآلهة حسب حاجاتها المتعددة ... أما القرابين الخاصة بالتكفير عن الآثام فإنها تقدم بصورة نادرة وتمارس لعمل « طقس خاص بالتوكيل » أي بمناسبة إنابة شخص للحضور عن شخص آخر، وكذلك فإن الحيوانات لم تكن تقدم كقربان إلا

خلال الاحتفالات « الخاصة بالأسرار الدينية » أكثر من تقديمها لتتوب عند الموت عن الذي يقدمها في الاحتفال الخاص بالقربان:

« يقدم الكاهن الحمل بدل الإنسان ولأجل أن يطيل حياته

فإنه يقدم رأس الحمل بدلاً عن رأس الإنسان ورقبة الحمل بدل رقبة

الإنسان وصدر الحمل بدل صدر الإنسان ... »

كذلك يقدم « الخروف المرسل » كقربان في عيد رأس السنة الجديدة (انظر ص ١٥٤). إن القرابين والضحايا المقدمة للإله تساهم في كسب حنان ورقة قلب الإله حيث يصبح معها راضياً على نسيان ما حصل من مآسٍ سببها أخطاء وخطايا الإنسان، ولكن القربان بكل معنى الكلمة والمقدم للتكفير عن الخطيئة، مارسه العبرانيون بكثرة واسعة بعكس وادي الرافدين.

ب ـ الصلوات: وهذا هو الجهد والعمل الثاني الرئيس في العبادة، وتشمل هذه العملية تحويل الشعور الديني الملهم من الإله إلى كلمات، أو بكلمة أخرى: هو إسماع الآلهة بالشعور الطيب الذي يكنه لها العباد لتبقى راضية، وهذا هو المنتظر من هؤلاء، ويشبه ذلك ما يصنعه الضعفاء للأقوياء في عالمنا.

إن تقديم الصلوات للآلهة هنو، لوي الصلب أو طيه أمامها ويعني طلب رحمتها، ورفع شأنها ومباركتها، كذلك تعظيمها وخدمتها، ويعني أيضاً التحسر والتأوه والبكاء والنحيب أمامها، أي أمام الآلهة، وذلك توسلاً إليها، مثل الخضوع للكبار على الأرض، فيقدم الشخص نفسه إليها ويركع أمامها ويتوسل ويمسك أطراف المعطف، ويقبل أقدامها ويرفع اليدين نحوها، حيث تكون راحة اليدين مفتوحة. ومن ثم فماذا يقول المتعبد أو الكاهن الذي يقوم بهذا العمل مخاطباً الإله ؟:

أثناء تقديم وإقامة الصلوات الرسمية فإن المتعبد أو الكاهن يخاطب الإله في نغمة شعرية نجدها مرتبة في فصولها ونسميها (ترانيم ومزامير). أما اللغة المستخدمة في ذلك فهي السومرية غالباً، ونفس الصلاة الموروثة أيضاً من السومريين والمؤلفة بلغتهم أصبحت من الطقوس البابلية وأضافوا إليها إضافات تقليدية بين السطور وبلغة عامية، ولكنهم مع ذلك فقد كتبوا باللغة الأكدية مجموعة كبيرة من الصلوات والأناشيد، وتكون هذه إما على شكل ترانيم

تعظيمية، أو كلمات خطابية للصلاة، القصد منها التوسل والطلب، ويمكن تمييزها وتصنيفها في مراتب حسب أنغامها وحسب استعمالها في الطقس ومن هذه: « رفع اليد أثناء الصلاة »، أو عمل « أنين بواسطة المزمار » أو أغاني شعبية (في موضوع الصلوات) لإنعاش قلوب الآلهة، وكذلك إطلاق « صرخات طلب الرحمة » أو تعديد مطول بالخطايا وإلخ ...

لقد كان الطلب والرجاء بصورة عامة غير مزدوج إذ لم يطلبوا الخير والنفع الخاص بقدر ما كانوا يتوسمون محو الكوارث وإبعادها والتي تسببها الخطايا والآثام، وهي كوارث شاملة وعامة، وهذه هي الصيغة المستخدمة غالباً أثناء إقامة الصلاة الجماعية أو الرسمية، وهذه النغمة استخدمت بتطويل عند السومريين، وتقريب الكوارث الشخصية الخاصة تجدها غالباً تذكر في الصلوات المنفردة عند البابليين والآشوريين وقد أدت هذه النزعة إلى تفكك الروح والنزوع إلى الفردية في الدين وبصورة خاصة في الصلاة. وجدت للصلوات أشكال مختلفة، مثل ما هو معروف عندنا اليوم، فهناك: مجسمات ذات مفاهيم عامة، يتجاوب معها المتعبد بعبارات ذات طابع واحد. أما المضمون فقد كان غالباً اصطلاحياً وغير شخصي، وهذا يسهل تحويله من ترنيمة مكرسة إلى آلهة معينة ونقلها إلى أخرى بتبديل بسيط لبعض من الكلمات وإدخال تعابير كاملة مأخوذة من مقطوعة أخرى. وبالرغم من هذا الضعف، الملازم لكل أدب رسمي أو تقليدي، وبالرغم أيضاً من القاعدة الأسطورية المبنية عليها مثل هذه المضامين[1]، فإننا نلمس بسهولة بأن سامبي وادي الرافدين استطاعوا أن يصلوا في مؤلفاتهم الخاصة بتعظيم وتضخيم الآلهة إلى تآليف خاصة بالصلوات، جميلة ورائعة جداً، وذات طابع ديني صرف ومؤثر بعمق وهنا نذكر مثلاً بعضاً من أبيات مؤلف، وهو عبارة عن « نشيد توبة »:

« يا مردوخ الشجاع الذي غضبه مثل غضب العاصفة،

ولكن نعمته هي نعمة أب رؤوف!

دعائي، لم يستمع إليه أحد: وهذا ما يفجعني

---

[1]- إن الكلمة: شيبتو التي تعني الأقوال الخاصة بالصلوات، أصبحت تعني بعد مرور الزمن، اسماً خاصاً يشير إلى الصلاة نفسها. (المؤلف)

صرختي، لم يجب عليها أحد: وهذا ما يعذبني

فارقت قلبي كل شجاعتي:

وأصبحت منطوياً على نفسي عجوزاً،

سيد القوة، مردوخ، إله الرحمة،

بين البشر، على كثرتهم،

كيف يستطيع الوحيد أن يفهم؟

الذي لم يرتكب أي إثم؟ الذي لم يزل أبداً؟

من يستطيع فهم مقاصد الإله؟

سوف أحافظ على احترامي وتعبدي وسأظل بدون تقرب...

.... ضدك ارتكبت جرماً،

لقد جاوزت وخالفت حدود حماية الإله.

اغفر لي ذنوبي، أحس بها تثقلني

واغفر لي تلك التي أجهلها أيضاً

وليكن قلبك غير مغتاظ أبداً (مني)

امح إثمي، وخفف خطأي

نور ترددي، بدد ارتباكي،

إن خطيئة أبي، وخطيئة والد أبي،

وخطيئة أمي، وأم أمي،

وأقربائي المقربين، وأقربائي البعيدين،

وكل من يمت لي بصلة قرابة،

سوف لن يتقربوا وليتهم يذهبوا إلى أسوأ مصير؟

إذا كلمني الإله فإنه سوف يطهرني وينقيني مثل زرع الكانكال.

أعدني بين يدي إلهي الحامي النقيتين

وعندها، فبالصلاة، والدعاء والتوسل،

سوف ألزم نفسي السكون أمامك إلى الأبد،

إن شعب الوطن الذي لا يحصى عدده، والذين يسكنون على كل أطرافه،

يسمون بعظمتك ...

امح إثمي، وبدد ألمي،

يا، مردوخ الشجاع، بدد ألمي،

أيتها الملكة الكبيرة (أروا)، بددي ألمي،

أيها الإله نابوذا الاسم الساحر، بدد ألمي،

أيتها الملكة تشيمتو، بددي ألمي،

أيها الشجاع نركال، بدد ألمي،

أيتها الآلهة ساكنة السماء، امحي إثمي،

إن الأخطاء التي لا تحصى والتي جعلتني مذنباً منذ طفولتي اللدنة،

دمريها، سبع مرات دمريها،

وليكن قلبك، مثل قلب أبي الذي أولدني،

ومثل قلب أمي التي أخرجتني للحياة، خذي مكانها،

والآن، أيها الشجاع مردوخ، سوف أغني وأنشد عظمتك ».

إن طقس العبادة الرسمي وهذه المزامير نفسها كانت تنشد من قبل فرقة تصاحبها فرقة موسيقية تعزف إما على المزمار أو على الدف أو السنطور وهذه الآلات الموسيقية كانت مقدسة أيضاً ولدينا نص مكتوب بالكتابة المسمارية (محفوظ اليوم في متحف اللوفر) وهو يرشدنا إلى الطقس المعقد الصعب، ويفسر أيضاً طريقة تطبيقه بخصوص تغطية الدف البرونزي الخاص بالمعبد بغطاء جلدي جديد لعجل.

إن المؤلفات الدينية الخاصة بالطقوس من هذا النوع ترتب المواضيع تحت عناوين معينة، وهناك ترانيم وأناشيد خاصة تنشد خلال تحضير وعمل الآلة والنص التالي يُذكر بالضبط قبل ذبح الضحية (العجل) وأخذ جلده المخصص لعمل الدف:

سوف يعمل لهذا العجل « غسيل للفم » بواسطة أنبوب قصب معطر، يهمس في داخل أذن العجل اليمنى كلمات الصلاة التالية:

يا للثور الكبير العظيم أنت الذي تطأ « الحشيش » الرائع

وبداخل أذنه اليسرى تهمس كلمات الصلاة التالية:

« أيها الثور، أنت الذي من نسل الإله زو ... »

يرش بعد ذلك على العجل عصير معطر من شجرة نبات الأرز، ويطهر بعد ذلك بمبخرة وبمشعل، ثم يحاط بمادة الـ (زيسورو) ومن ثم هناك من يقف على رأس العجل ويغني على نغمات المزمار المصنوع من النحاس والقصدير:

يا رب التفت إلينا

ومن ثم ينشد:

يا آلهة السماء والأرض كونو أقوياء؟ .... »

هذه الصلاة العلنية المنشدة من قبل الكهنة المختصين بإقامة القداس أو الطقس تكون جزءاً من فروض العبادة وتقام الاحتفالات الخاصة بها في المعابد لأجل كل العباد أو خاصة لأجل أحد ما. إن العباد يتوجهون، أيضاً وبصورة خاصة نحو الإله للتعبد ويقصد بهؤلاء العامة من الناس، وكما أسلفنا فيشارك هؤلاء كل حسب طاقته بتقديم مختلف الأنواع من القرابين والضحايا في سبيل « التحاور » والتقرب من الآلهة، وبنفس الوقت يتوجهون إلى هذه الآلهة لإقامة الصلوات.

هذه الظاهرة ذات الطابع الشخصي في التعبد تذكر لنا مثلاً في الوعظ الأخلاقي المذكور سابقاً (انظر ص ١١٣ ...)، وحيث يقدم القربان والصلاة كواجب ديني رئيس على كل فرد.

ومن خلال دراسة أسماء الأعلام فإننا نتمكن من ذكر شواهد على الصلوات الفردية والتي تكون أكثر من دعاء نافذ:

ومثل ذلك اسم: (شمش - كين - زير) الذي يعني: أو - شمش - وطد - ذريتي « وهناك اسم (سن - شيمياني) الذي يعني: « أو - سن - أستجب لي » والخ...

إن كل هذا يكشف الدور العميق الذي تلعبه الصلاة في الحياة اليومية بالنسبة للفرد. هذا العمق في الديانة تفترض الواقعية فيه، فتحصل بواسطتها سهولة إدراك وجود وحضور الإله المخاطب، ونملك نصاً مكتوباً هو عبارة عن صلاة جميلة جداً أداها الملك الآشوري المثقف آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٦ قبل الميلاد) وهي على شكل محاورة بينه وبين الإله نابو.

لقد حسب لكل شيء حسابه وعلينا أن نفترض بأنه على الرغم من وجود منافع ذاتية تكشفها لنا صلاة البابليين، وأكثر من ذلك طريقة عبادتهم عن طريق « محاورة » الآلهة فإنها تكشف لنا عن غزارة أصلية في الشعور الديني للمتعبد وتنم عن إعجاب وثقة تجاه عالم الآلهة بالرغم من عدم وجود أي ملامح ذات طابع « صوفي » عندهم.

احتفالات الطقوس الدينية:

إن النصوص المذكورة في الفصول السابقة تجيز لنا تصوراً ذهنياً للفعلين الرئيسيين لإتمام العبادة: القربان وعمل الصلاة وكيف أن هذين الفعلين يتداخلان فيما بينهما عملياً لتكون الاحتفالات الدينية العلنية وكل ما يخص إنجاز الطقوس، وكل إنجاز الصلاة كما ألمحنا معقد وصعب ومختلف، حسب المناسبات وحسب الظروف والأيام أو بعبارة أخرى حسب الطقوس اليومية.

لقد كان تقسيم السنة حسب مدار القمر إلى اثني عشر شهراً (يضاف إلى ذلك بين وقت وآخر شهر آخر لموازنتها مع السنة الشمسية)، وكل شهر من هذه الأشهر كان مقسماً إلى ٢٩ أو ٣٠ يوماً وأول شهر كان يبدأ بظهور القمر الجديد. إن كل هذه الأيام والشهور مكرسة ومطابقة لإله معين وذلك حسب التقويم

الأبدي والذي وجدنا منه نماذج متعددة. والنص الأكثر شهرة هو عبارة عن مؤلف تحت عنوان: باكورة[1] الشهر، يا سيدي... »

لم يكتف بتسيب كل يوم إلى شخصية إلهية فقط وإنما أيضاً نسبة إلى حسابات معقدة وصعبة الفهم مبنية على رموز لأعداد، وتثبت هذه الأعداد مواعيد الواجبات الدينية بالنسبة للعبادة: من طقوس أو مواعيد تحريم الأكل وغيرها، ويكون حساب هذه الأوقات بواسطة استنتاجات تكهنية وخاصة بالعرافة، وتعرف الأوقات فيما إذا كانت ذات صبغة أو طابع مبهج أو مشؤوم أو نحس.

ونذكر هنا ما هو مذكور في إحدى هذه التقاويم والتي تعطينا فكرة واضحة: « اليوم السادس من شهر أيلول يوم مشؤوم ... سوف يقدم إلى الإله قرباناً مكوناً من غذاء يناسبه ويفرح به وسوف يقبله. ينشد نشيد خاص بالتكفير عن الذنوب ...

اليوم السابع سيكون بهيجاً تماماً، تقدم المأكولات (لزيابا)

اليوم العاشر يوم شؤم. كذلك بالنسبة لعشتار و (بابسوكال) ...

اليوم الرابع والثامن والسابع عشر من الشهر هي « أيام مقدسة في كل الأشهر »،

وهي نوع من أيام الجمعة عندنا والتي تبدأ في مساء اليوم السابق ويقام احتفال ليلي مقدس معروف بالنسبة للطقوس الوركائية ولإنجاز هذه الاحتفالات يقوم عدد من الكهنة ذوي الرتب المعينة بتقديم القرابين الخاصة للآلهة.

وهناك احتفالات أخرى تقام من وقت لآخر وبالنسبة لكل مدينة ولكل معبد مثل الاحتفال المسمى (أوم إيلي الذي يعني « يوم الإله ») كذلك تقام الاحتفالات لتعظيم حوادث مختلفة من الحياة الأسطورية لإله محلي أو لعلاقته مع البشر وهكذا بالنسبة إلى موت وإعادة الحياة للإله تموز ولزواج الإله نابو وتشميتو.

أما العيد والاحتفال الكبير فيصادف في بداية السنة وبالذات في بداية شهر نيسان، وعندنا تفصيلات مكتوبة عن هذا الاحتفال المذكور حسب الطقس

---

[1]- الباكورة هنا أو الأول يراد بها القدر وهو آلة القمر، سن. (المؤلف)

البابلي، وبطل الاحتفال بطبيعة الحال هو الإله مردوخ (مثل آنو في مدينة الوركاء وآشور عند الآشوريين). ونذكر هنا ملخصاً لطابع الاحتفالات البابلية والآشورية على حد سواء، وكان هذا الاحتفال يستمر مدة اثني عشر يوماً. وتتقصنا تفاصيل احتفال اليوم الأول. اليوم الثاني: يُطهر الـ (أوريكالو) ويلبس ملابس من الكتان ويظهر متوسلاً إلى مردوخ بأن يرحم بابل، ويتبع ذلك عمل القداس الاحتفالي.

اليوم الثالث: تقدم نفس الصلوات قبل القداس الاحتفالي ومن ثم يصنعون شخوصاً من الخشب المحلى بالذهب والجواهر ويلبسونها ثياباً حمراء (لون الحزن) وتوضع هذه في المعبد المسمى « القاضي السماوي ».

اليوم الرابع: قبل الفجر، صلوات جديدة من قبل الـ (أوريكالو) إلى مردوخ وساربانيت. ويتبع ذلك عمل الطقس الخاص بهذا اليوم، وفي المساء فإن (الـ أوريكالو) ينشد بحضرة مردوخ كل الأسطورة الخاصة بالخليقة، الـ (إينوما إيليش).

اليوم الخامس: نفس البداية ويتبعها تطهير عام لكل الإيزاكيل ويذبح خروف في المعبد يرمى بعد ذلك في نهر الفرات بيد الكاهن ماشماشو والـ (ناش باطرى) الذين يصبحون بعد العملية هذه ملزمين بالبقاء خارج أسوار المدينة حتى نهاية آخر يوم من الاحتفال.

تنظيم وتحضير معبد الإله نابو: يقام طقس خاص بهذا الإله، يحضر الملك نفسه أمام الإله مردوخ وينزع عنه الـ (أريكالو) كل رموزه الملكية التي يحملها ويعلن الملك سلامة نيته، ويتقبل بعد ذلك نفخة رمزية من المحتفلين ويأخذ ثانية رموزه وعلاماته ومن ثم يُذبح ثوراً.

اليوم السادس والسابع: يُحضر لانبثاق الروح المقدس: حيث تجمع تماثيل الآلهة المشاركة في الاحتفال، ثم يقطع ويحرق النموذجان المصنوعان من الخشب في اليوم الثالث، وتوضع التماثيل والنماذج أمام الإله نابو، الذي يظهر وكأنه مقبل لنجدة مردوخ « المسجون » وهذا تلميح لأسطورة تذكر بأن مردوخ سيموت ويقبع في العالم السفلي، ولهذا فإن الحزن والفوضى الجماعية تعم المدينة.

اليوم الثامن وحتى الثاني عشر: رحيل الروح المقدسة متوجهة نحو الأكيتو: « بيت الريف »، والذي يقع في ضاحية المدينة، وتبقى الآلهة في هذا المعبد وفيه يحتفل العباد على شكل صمت مقدس، بالمعركة التي انتصر فيها مردوخ على الآلهة الشريرة. وتذكر هذه المعركة: بعث مردوخ وعودة الروح منتصرة إلى الإيزاكيل، وهنا يتوقف المحتفلون في غرفة المصير وهو المكان الذي يحدد فيه مردوخ ما هو قدر ومصير هذه السنة، ومن ثم يختتم الحفل بحفلة الزواج المقدس لمردوخ وساربانيت.

الفصل العاشر

طقس « السر المقدس »

طقس « السر المقدس »

إن كل الاحتفال الخاص بالطقس لم يكن معمولاً بصورة أولية ومباشرة لتعظيم وإرضاء الآلهة ولكن لفائدة ومصلحة العباد أنفسهم. إن هذه المصلحة والفائدة المبتغاة كانت تهدف إلى إبعاد الشر ولمعرفة المستقبل، وكان يستحصل على الهدف الأول بواسطة تكرار الأقوال الخاصة بطرد الأرواح الشريرة، أما الثاني فكان يستحصل بواسطة الفأل والعرافة.

يمكننا الكلام عن « العبادة » أو التعبد، وكذلك عن أنواع ممارسته ذلك لأنها تمثل بنظر البابليين ممارسة دينية صرفة.

إن طرق إنجاز العبادة والطقس توضح لنا اعتقادهم بما هو خرافي، ولكن بنظر سكان وادي الرافدين القدماء كانت هذه الطرق هي الإيمان، ويعني هذا أنهم كانوا يعبرون عن أنفسهم بواسطة الإيديولوجيا الدينية وينفذون خلال ذلك إلى إيجاد إيمانهم وثقتهم بالآلهة.

طرد الأرواح الشريرة:

ويفضل هذا التعبير طرد الأرواح الشريرة عن ما يعرف « بالسحر » الذي يختص بكل ما يتعلق بالمعرفة الخاصة والتي مصدرها الإيمان ويتضمن هذا حركةً وتياراً يناقضان على خط مستقيم مفهوم الديانة الأصلية التي ترتكز على الخضوع لكل ما هو مقدس. هذا النوع من السحر في الواقع يعتبر نوعاً من الإيمان والدين المحور والمشوش والفاسد، ولقد ثبت وجوده في وادي الرافدين كما في كل مكان آخر وفي كل زمان. لقد أطلق على هذا النوع من الميل الديني المحور « كيشبو » والذي يعني « أضرار السحر ». إن المبشرين والوعاظ الخاصين به

يسمى واحدهم باسم كاشابو أي « الساحر » « وكاشابتو » أي « الساحرة » أما طريقة عمل هؤلاء فتتركز على « التسخير » أي جعل الأفراد تحت سيطرتهم السحرية والإسهام في حالات مؤذية من السحر، وتذكر لنا الأدبيات المكتوبة باللغة المسمارية، النتائج السيئة جداً المتأتية من خلال ممارسة هؤلاء لهذا الضرب من التبشير علماً بأن دقائق ممارسة هؤلاء لهذا العمل كانت سرية للغاية، ولم نعرف تفاصيلها، عدا ما تذكره الأقوال الخاصة بطرد الأرواح الشريرة والتعابير التي تضم مفاهيم سحرية والتي عثرنا على العديد منها، ويقصد منها محاربة ما يسمونه « بالسحر الأسود » بمساعدة وبدفع معنوي من الآلهة، ولهذا نجد تعبير « طرد الأرواح الشريرة » أكثر ملاءمة للمفهوم.

إن الفكرة الرئيسة « المستندة على الوحي » والتي تميز قيمة هؤلاء المختصين بطرد الأرواح الشريرة تقبع في المفهوم التالي: إن كل ألم أو شر جسمي أو غير جسمي سواء كان فردياً أو جماعياً، يكون سببه ارتكاب الإثم والذي بدوره تسببه بصورة مباشرة القوى الشريرة ويعني بذلك الشياطين وعملاؤهم (الساحر والساحرة)، .... وبصورة غير مباشرة من قبل الآلهة وذلك عند ازدياد وكثرة الآثام ووجوب إنزال العقاب الصارم، فإن هذه الآلهة ألزمت وأعطت السلطة إلى هذه القوى وهي التي تسبب حركتها.

إن هدف طرد الأرواح الشريرة كان أيضاً تطمين قلوب الآلهة، « ويتحصل بنتيجة هذا العمل إيقاف نشاط القوى الشريرة ويختفي الشر بعد ذلك ». وللوصول إلى هذا الهدف ليس على الناس أن يكثروا من الصلاة الخاصة ليكفروا عن ذنوبهم فقط وإنما عليهم أن يقوموا بمراسيم دينية متعددة (انظر ص ١٤٨ ....) وكثيرة وهي مستوحاة من الإيديولوجيا « السحرية » الصرفة (مثل ترك النفس للانجذاب العاطفي).. ولكن هذه المراسيم الدينية مشبعة تظل بتضاد دائم للسحر وفي هذا اقتناع بسلطنة ما هو إلهي. إن هذا النوع من المراسيم الدينية يكون جزءاً من الطقوس باعتبار أن مبشريها هم من الكهنة الـ « أشيبوا » ويعني ذلك المختصين بطرد الأرواح الشريرة، ويساعدهم في ذلك مثلاً « الكالو » وهو « المختصون بالبكاء والنحيب » وكذلك المطهرون: الـ مشمشاشو.

إن الأدبيات المكتوبة الخاصة بطرد الأرواح الشريرة هي كثيرة جداً، ونجدها غالباً مكتوبة باللغة الأكدية ويرجع ذلك إلى التطوير الواسع الذي حصل عليها بعد احتلال الساميين لوادي الرافدين، ويعود هذا التطوير إلى تنظيم الساميين لما يخص مفهوم الشر وأسبابه المباشرة (ص ١٠٨ ...).

إن مجريات الاحتفالات تختلف اختلافاً عميقاً، مثل اختلاف الطقوس الخاصة بالعبادة، وتكون مجموعة من الصلوات والأفعال، وتدور أفعال الاحتفال عادة، إذا كان الموضوع يختص بالمرض، إما في دار المريض، في غرفته وحول فراشه وبعض الممرات فوق سطح البيت، أو في العراء ونادراً ما يعمل هذا الاحتفال الخاص بشفاء المرضى في المعابد. وتكون العناصر الرئيسية: أولاً: اعتراف المريض بخطاياه الشعورية والتي لا يشعرها ولا يقرها هو (انظر ص ١٢٠ ...).

ثم هناك الجزء الخاص بدعوة الآلهة إلى نجدة المريض وإنقاذه[1] ومن ثم الجزء الخاص بطرد الشيطان من الجسم « والقوى الشريرة » فيما إذا كانت شياطين وسحرة.

ونذكر هنا مثلاً من الوصفات العديدة الخاصة بطرد الأرواح الشريرة، وهي من أصل نص مكتوب باللغة المسمارية ومحفوظ اليوم في متحف برلين، إن موضوع هذا النص يتعلق بطرد شبح يتردد في الليالي ويعبر عنه اليوم بكلمة كابوس:

« إذا ظهر شبح ميت على شخص وإذا عرفه هذا الشخص أو لم يعرفه فلأجل إبعاد ظهور هذا الشبح تصنع دمية تشبه وتمثل هذا الميت ويجب وضعها فوق فراش المريض.

في اليوم الثالث عند الظهيرة يجب كنس الأرض من أمام الإله شمش ورشها بالماء النقي ويوضع مذبح صغير وفوق المذبح توضع كمية من التمر وتنثر كمية من الطحين ثم تشعل مبخرة فيها عصير شجرة السرو، وتسكب بيرة من النوع الجيد، بعد ذلك تلعن الدنيا بالتعابير التالية:

---

[1]- انظر المزامير الخاصة بالتكفير عن الذنوب ص ١٤٨. (المؤلف)

« شمش، أنت دليل هذا الميت في العالم السفلي وفي العالم العلوي فامنحني (حلاً لحالتي)، إنه مرعب، قبيح المنظر جاسوس بغيض ومخيف ليلاً، إنني أنحني وأتضرع جعله في مكاني. بحياة شمش ليبعد عني. وتكرر هذه الصيغة ثلاث مرات ثم تكفن الدمية وتدفن في ظلال شجرة نبق ذات أشواك ....

معرفة الغيب والفأل:

يعتبر هذا الفن أو المهنة أقل تعلقاً بالدين من مهنة طرد الأرواح الشريرة، إن معرفة الغيب تتجاوب مع الرغبة العامة والحنين الذي كان من ميزات الشخصية البابلية، فمعرفة المستقبل بالنسبة لهم هو لتطمين أنفسهم ببعد الشر وإقناع أنفسهم بالنجاح الدائم. وباعتبار أن هذا المستقبل نفسه غير محسوس وغير معروف بالنسبة للإنسان الذي لا يستطيع أن يكون عنه فكرة واضحة بدون اللجوء إلى من هو أكثر منه قابلية على الإدراك، وهو هنا المدعي بمعرفة المستقبل باستنتاجه من الحاضر أو الماضي.

إن العملية الأولى في معرفة المستقبل تكون بواسطة التنبؤ والحدس وهذه النظرة معروفة لدى البابليين ويوجد بينهم من يطلق على المختصين بهذا الموضوع بـ « العرافين » الذين يستطيعون التعكز على ما يعرف بالعلوم الخاصة بما بعد التصور أو غير الطبيعية، والمختصة بمعرفة المستقبل، إضافة إلى معرفتهم عن طريق الرؤيا، بالإرادة الإلهية.

نضيف هنا كذلك شيئاً عن أصول أشباح الموتى التي توردها لنا عملياً ملحمة كلكامش، (اللوح الثاني عشر)، ولكن الطريقة المنتشرة والشعبية جداً في معرفة المستقبل، كانت « المعرفة الاستنتاجية » من شيء حاضر، وسميت هذه الطريقة بـ « الفأل »، ومن الفأل أيضاً يمكن معرفة الأحداث في المستقبل، ونورد أمثلة على ذلك:

١ ـ « إذا كان في مدينة ما كثير من الجهلاء فإن هذه المدينة سعيدة ». إذا كان فيها كثير من الأذكياء ـ فيعني ذلك تدميراً للمدينة.

٢ ـ إذا ظهر القمر وحوله مجموعة من النجوم فسوف ينهمر المطر.

٣ ـ إذا ولدت امرأة طفلاً له أذان الأسد فإن ملكاً قوياً سوف يظهر في البلاد.

إن الحقيقة الأولى ليست هي في الواقع إلا حقيقة مبنية على تجربة مرة وساخرة وقد وضحت بهذه الطريقة العرافين بالبشر.

أما الثانية فترتكز على نفس الاستنتاج الذي يفسر أيضاً بأن لوح السماء الحمراء في المساء تنذر بجو حسن في اليوم التالي.

أما الحالة الثالثة فليست أكثر من مصادفة معروفة طبقت بما يشبه القانون، فقد ربط سبب تسنم ملك قوى للعرش بولادة، تسبق هذا الحدث، لطفل غير طبيعي ووحش واستنتج بالاستناد على أمور أخرى وكذلك على الصيغة الرمزية المعروفة وهي كون وجه وصورة الأسد تعتبران رمزاً للقوة، إن هذا النوع من الأسباب هو الغالب على مفاهيم ما يدعى بـ « الطريقة البابلية في معرفة المستقبل بالاستنتاج ».

فكان هذا النوع من السبب، على ما يبدو، مستخدماً بشيوع وعلى نطاق واسع. وقد ثمن وأخذ بعين الاعتبار لأنه حتمي، حيث كان مبنياً، بشكل ما حسب طريقة معينة في رؤية الأشياء ويمكن أن تكون هذه الطريقة قد كونت نوعاً من « نظام » معين. وهذا النظام غير واضح بصورة كلية لنا إذ من المعروف أن سكان الشرق القدماء وبصورة خاصة، الساميون منهم كانوا غالباً ضد الأفكار العامة وكل ما هو تجريدي، ولكن مفهوم مبدأ العلاقة المتبادلة للعناصر المختلفة المكونة للكون نجد كل واحد منها منعكساً على العناصر الأخرى، ومثل هذا الحكم كان في الواقع نابعاً من الرمزية الخاصة للبابليين والباحثة في النجوم، ونجد لذلك أن تاريخ البشر يجد له الانعكاس الأكثر وضوحاً في النجوم، ومن هنا نجد كثرة النصوص للعرافة ومعرفة المستقبل وعلاقتها العميقة بعلم الفلك، والأهمية الرئيسة لهذا العلم وعلاقته المباشرة بالديانة والفكر البابلي. (انظر للتوسع في ذلك الصفحات القادمة). ولكن تاريخ البشر كان بنفس الوقت مترادفاً مع عدد كبير من الظواهر الأخرى، وعند تحليل ودراسة هذه الظواهر نجدها مكونة من مصادر متعلقة بالعرافة أيضاً، فما يخص الحيوانات هو (عرافة خاصة بعلم الحيوانات) وما هو متعلق بتقاطيع الوجوه هناك (عرافة خاصة بالفراسة) وما يخص الأرقام والأعداد (عرافة خاصة بالجبر والحساب والرياضيات بصورة

عامة) وفيه كثير من الظواهر الأخرى، ليس فقط المنظورة، بل وحتى الظواهر التي تنتج بالخلط بين الأشياء، ومثل ذلك الأشكال التي تنتج من سكب الزيت في الماء أو بالعكس، فهناك عرافة خاصة لكل ما هو سائل. إن كل صنف من هذه الأعمال كان متعلقاً ومتجاوباً مع حياة الإنسان « الفرد »، ويعرف مسبقاً بواسطة تتابع حوادث هذه الأعمال ترتيب فهارس عديدة مرتبة حسب ما عرضناه في الصفحات السابقة على شكل نماذج ويكون نظمها على شكل وضع التكهن والفأل في موضع قبل زمنه ويتجاوب مع نهاية أو نتيجة تمثل الحوادث المتوقعة والمتكهن بوقوعها.

هذا « النظام » الرئيسي أوجده الساميون على الأرجح في وادي الرافدين وينعت بكونه المرحلة ما قبل العلمية وهو نوع من الدراسة للعالم غير مبنية على تحليل المسببات وإنما تعتمد فقط على تحقيق النتائج، وهذا التحليل بنظر البابليين كان مؤثراً بصورة أعمق وذلك لأنهم أرجعوا هذه الدراسة إلى عناصر الدين وكل ما يختص بالكهانة، وهذا التطابق « أيضاً هو ظاهرة تلقائية للآلهة الخالقة التي هي بدورها خلف كل الظواهر ».

الفصل الحادي عشر

بقايا الديانة البابلية

بقايا الديانة البابلية

لقد زال كل أثر لبابل المستقلة وقوتها بعد احتلال الفرس، ورغم أن خسارتها السياسية لم تؤد إلى موتها الكامل بل أعطتها قوة بدأت بواسطتها نصراً آخر على العالم ألا وهو النصر الروحي، وكان هذا بعد موت الاسكندر الكبير وتشتت الهيلينية. لقد وصل هذا التأثير الروحي حتى عصرنا الحاضر. ففي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني، وبالذات في عصر سلالة أور الثالثة، نجد الانتشار الواسع المدى لحضارة وادي الرافدين في كل الجهات في الشرق الأوسط والأدنى وقد أدى ذلك إلى رسوخ الديانات ومكانتها الرفيعة نتيجة لهذه الهيمنة السياسية، ولكن في العصر الهيليني وبدعمه فقد استمر التأثير إلى مدى أبعد ولفترة طويلة أمدت التأثير البابلي من جديد بدفع جديد إلى العالم.

إن الغزو الفارسي وما تلاه من نتائج وخيمة لم يبلد الحياة العامة أو الدينية في وادي الرافدين، وتزودنا الكتابات المسمارية من الوركاء والتي تعود إلى بداية العصر السلوقي بتوضيحات جلية عن هذه الفترة وبصورة خاصة في مدينة الوركاء ذاتها حتى الغزو البارثي والتدمير الساحق الذي صاحب هذا الغزو، فإننا مثلاً نعرف أن الآلهة ذاتها عبدت خلال كل هذه القرون، وذكر اسم آنو، آنتو، أنليل، إيا، سن، شمش، أداد، مردوخ، عشتار والخ ...وحتى أنها عبدت بعمل نفس المراسيم ونفس طقوس العبادة وقد وجد الشيء ذاته كذلك بالنسبة للطقوس الخاصة « بالأسرار المقدسة ».

إن أسماء الأعلام، من جديد تضيء لنا شعوراً وإيماناً عميقين بالدين بالنسبة لإيديولوجيا الدين الرئيسة، والتي كشفت لنا عن تفاصيلها الوثائق العائدة للقرون القديمة بالنسبة إلى هذه التواريخ. فلقد اعتبرت الآلهة دائماً

« كخالقة » وهي التي « وهبت الحياة » وهي « الحامية » و « المنجدة » وهي « السيدة » ... ومع ظهور آلهة أجنبية مثل الإلهة إيزيس المصرية تحت اسم أزى وكذلك الإلهة هاديس ذات الأصل الإغريقي ظهرت تحت اسم آديشو، إلا أنها لم تأخذ نصيبها في الطقوس الرسمية، ونلمس تأثير هذه الآلهة الأجنبية فقط في بعض أسماء الأشخاص ويدلل على ذلك على وجود عبادة شعبية أو خاصة لها، وبصورة عامة فإن كل شيء يتعلق بالخطوط العامة للديانة القديمة استمر منذ قرون طويلة وحتى هذا التاريخ بدون أي فجوات تؤثر في انسياب هذا التطور.

على أن هناك وثائق مكتوبة من العصر الهيليني تخص الفكر الديني بسكان وادي الرافدين في هذا العصر، وتذكر تلك الوثائق تبدلاً جذرياً عميقاً حصل بخصوص كل ما بحثناه عن الساميين وديانتهم، ويعني هذا أنهم تبنوا العناصر الخاصة بالديانة الإغريقية في تلك الفترة الهيلينية، وصبغت هذه العناصر الهيئة والخطوط العريضة للديانة البابلية في تلك الفترة، وهذه الفرضية دقيقة جداً ومبنية على الصدفة والاعتباط في الاقتباس ذلك لأن ما اعتمد عليه في هذه الفرضيات مثلاً هي المحاورة الأفلاطونية المسماة أبينوميس Épinomis وفي أحد فصولها الذي يخص مبحثنا نجد القول التالي:

« كل ما اقتبسه الإغريق من البربر حولوه وطوروه في النهاية إلى شكل أجمل مما كان عليه في السابق ».

يقصد أفلاطون بالبربر هنا البلد الأصيل ذو الحضارة العريقة التي أنتجت أول البشر وهو الأولى بالدراسة والبحث. إن جزءاً كبيراً من المحاورة الأفلاطونية[1] كان القصد منها إنجاز تكوين فلسفي يتعلق بمفاهيم الدين وذي صبغة مقدسة بكل جوانبه، فقد بحث « في النجوم » والآلهة ذاتها وحث على تعظيمها والاحتفال بها كما هي أو على الأقل « صورها وتماثيلها ».

ولكن عندما نستعرض الفكر ذا الصبغة الإلهية والخاص بدراسة النجوم، نرى هذا المفهوم غريباً ودخيلاً على الديانة الإغريقية الأصلية وحتى على الديانة الرومانية، كذلك الطقوس الخاصة بهذا الجانب الديني دخيلة وغريبة على هاتين الديانتين، ويستغرب الباحث فجأة ظهور هذا المفهوم عند الإغريق

---

[1]- يرجح أن يكون مؤلفها ليس أفلاطون نفسه وإنما فيليب الأبونتي تلميذه وسكرتيره. (مؤلف)

(على الرغم من التحضير لهذا الظهور والاستعداد له من قبل الفلاسفة والكتاب في الأساطير والذين اعتمدوا على الشرق في مؤلفاتهم) ومع ذلك لم يشك هؤلاء في الأصل الخارجي لمفاهيمهم الخاصة بهذا التيار الديني[1]. إن المحاورة « الإبينوميس » تذكر بكل صراحة المنطلق والبداية لهذا النقل والاقتباس وتلمح بذلك إلى « الكلدانيين ». إن الواسطة في هذا النقل هم المصريون والسومريون، حيث تذكر المحاورة أسماء هؤلاء بكل وضوح وصراحة، وتضيف المحاورة بأن نظامهم ينتشر من أرضهم إلى كل مكان في العالم وبصورة خاصة هنا (في اليونان).

إن عبادة النجوم متأتية إذاً من بابل، ومنذ ظهور هذه البدعة في اليونان، وبالذات في زمن أفلاطون لم تكن مع ذلك أكثر من تيار وعود غير قوي بعد أن تعاظمت وانتشرت هذه العبادة بعد ذلك في مناطق واسعة.

إن سبب هذا الانتشار يعود إلى الفكر السائد في نفعية وأهمية كل ما هو ذو أصل شرقي[2]: ففي الشرق كان العصر عصر تأليف وإنتاج حيث نجد أن الكتاب ينشرون مذاهب ونظم آبائهم ومعاصريهم، ومن هؤلاء الشهير بيروس الكاهن البابلي في معهد بيل الذي كتب باللغة الإغريقية في حوالي عام ٢٨٠ قبل الميلاد تاريخ بابل في ثلاثة أجزاء، ويستلهم في وصفه لنظريته في خلق العالم من أسطورة الإينوماإيليش[3]. من المعترف به أن وادي الرافدين، منذ نهاية القرن

---

[1]- المؤلف الإغريقي أوديم من رودس وهو بنفس الوقت تلميذ أرسطو كتب في أحد مؤلفاته « نظرية تكوين العالم » البابلية الأصل ذاكراً نفس البداية التي تذكرها أسطورة الإينوما إيليش. بواسطة داماسكيوس وهو من أتباع الأفلاطونية الجديدة التي انبرت في القرن الخامس ـ السادس من هذا العصر وذلك في مؤلفه المسمى: « بحوث الأصول الأولى ».
(المؤلف)

[2]- لقد كان البابليون أول من درس وبشكل جيد الشكل الفيزيائي للسماء وكانوا مولعين بعلم التنجيم وهم أول من أوجد خريطة للأجرام السماوية، ولقد نجحوا أيضاً في إظهار الخوارق بواسطة مزج القوى السماوية بالقوى الأرضية. (المترجم)

انظر أيضاً: النيسابوري: تفسير القرآن. م ١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

لقد ذهب بعضهم إلى تجسيد أثر النجوم والكواكب في المفاهيم الفكرية وأهمها الجانب الديني إلى القول مثلاً بأن ديانة العرب كانت مرتكزة كلياً على عبادة الأجرام السماوية. (المترجم)

[3]- انظر ص ٩٨ ملاحظة رقم (٢٩). (المؤلف)

الثالث قبل الميلاد، لم يكن المصدر الوحيد لتصدير النظم والأفكار الخاصة بالدراسات الفلكية، فهناك أيضاً مصر وسورية وإيران أيضاً، ولم تكن هذه الدول إلا وسطاء في النقل والاقتباس فقد استوردوا من وادي الرافدين ما يخص هذا العالم وبالنسبة لمصر وإيران يبدأ الأخذ فيما يخص الدراسات الفلكية منذ زمن الأخمينيين أما بالنسبة لسورية وآسيا الصغرى فكان ذلك قبل هذا الزمن بكثير[1]. ونفس النظم البابلية اقتبسها هؤلاء الأخيرين (سورية وآسيا الصغرى) في تطعيم طرقهم الدينية. وهناك إضافة إلى كل ما تقدم أدب رصين عند اليونانيين في بداية التاريخ المسيحي يتجاوب ويفسر كل ما هو متعلق بالعبادة الخاصة بالنجوم ومن هذه الأدبيات ما هي ذات أصل ومصدر بابلي، وأمثال هذه المؤلفات الأدبية أشعار مانيليوس ومؤلفات بطليموس الفلكي الإغريقي في القرن الثاني الميلادي[2] وكذلك تينيوس فالانس الذي ألف في موضوعات أدبية وفنية إضافة إلى مؤلفات كثيرة أخرى.

إن الإيديولوجيا الخاصة بالنجوم لم تسلط على عقليات العامة فقط بل نجدها تنفذ بعمق أكثر وتبدل ملامح الديانات الشرقية الأخرى: المصرية والسومرية والإيرانية وحتى نجدها تحضر إلى مذهب التوحيد في الدين في هذا العصر. إن هذه الإيديولوجية تفرض وفي كل مكان مبدأ الاقتناع بالسلطة والسيطرة الكاملة التامة للآلهة على كل ما يتعلق بالكون وما يتعلق بكل إنسان « فرد »، ويأخذ الشعور بالدين شكل حالة المخذول والمنحوس تجاه القوة الإلهية المحتمة والمقدرة. إن هذه الآلهة نفسها لها أسماء وصيغ خاصة بالنجوم وبالنتيجة فإن القوة الحتمية والتي لا يمكن مقاومتها نجدها مؤلهة نفسها أيضاً وترأس هذه القوة المدار المنظم أبدياً للنجوم ومنها سير العالم أيضاً، وهذه الآلهة القدرية ورمزها الشمس هي الأكثر تألقاً ووضوحاً والأجدر بالشعور الديني

---

[1]- في سورية وبالذات في الموقع المسمى المشرفة. قطنة وجدت نصوص تبحث في علم الفلك الخاص بوادي الرافدين ويؤرخ هذا البحث من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، ومن نفس هذا العصر وجدت في وسط آسيا الصغرى ترجمات باللغة الحثية لبحوث بابلية خاصة بالفأل ومعرفة المستقبل. (المؤلف)

[2]- كلود البطليموسي يعتبر في الواقع مصري من أصل إغريقي، وكان قد ولد في مدينة بطليموس في شمال مصر وتوفي خلال القرن الثاني للميلاد. (المترجم)

الثابت أو الديني المتطرف وهي، الأجمل بين النجوم، والمقدسة، وكذلك الإله الوحيد « الذي لا يمكن قهره ».

إن نفس الإيديولوجيا الخاصة بالنجوم هذه أحدثت انقلاباً آخر في جمال آخر من الديانة ذلك هو الشعور الديني الخاص بما بعد الموت: فلقد تخيل الفرد أن الروح ستبقى بعد الموت، والتي يكون مصدرها في هذه الحالة أيضاً له علاقة بالنجوم، وإن « صعود » الروح أو عودتها والتحاقها بالآلهة - النجوم - بخلود منتقى من الحتمية المفروضة على الأرض، وتذهب هذه الروح لتنعم بهذا الالتحاق وذلك حسب استحقاقها من السعادة الأبدية، إن مكان اجتماع وتجمع أرواح الموتى هذه المرة ليس كما عند البابليين في العالم السفلي تحت الأرض وإنما في السماء.

إن الفلاسفة أنفسهم وبصورة خاصة المتشددون منهم والذين نعرف منهم: العراقي الأصل الشهير ديوجين البابلي الذي عاش في حوالي: (٢٤٠ - ١٥٠ ق.م) وآخر اسمه أرشيديم التارزي الذي أسس في بابل في القرن الثاني قبل الميلاد مدرسة شهيرة، فلقد استحوذت النظريات الخاصة بالنجوم والفلك على عقول هؤلاء فجمعوها بشكل مراتب أو أنظمة متلاحمة وبشكل منطقي ومطابق للعقل وحولوها بعد ذلك في شكل الأصل الأول المفسر للكون والوجود، وتم ذلك بالاستعانة بمبدأ أو قانون التعاطف أو الانجذاب وكذلك بالاستعانة بالعلاقة المتبادلة بين عالمي تحت القمر وفوقه، إضافة إلى العناصر المكونة لكل واحد من هذين العالمين. وباعتبار أن الفلسفة والدين يسيران يداً بيد فبالنتيجة نجد الرؤيا للكون تراعى بصورة منسجمة وعامة وكاملة، والسبب الأول في هذا التحكم والمراعاة هو الكائن الأعلى، العظيم الرفيع الشأن والخالد الكامل، وهذا التحسس والشعور لم يكن فقط نتيجة تأملات فلسفية ولكنه أيضاً نتيجة شعور ديني عميق قائم على الاحترام والإعجاب.

ولا نجنح إلى الإلحاح أكثر في الدور الرئيس الفعال الذي لعبته الإيديولوجيا الدينية الخاصة بالنجوم في العصر الهيليني والروماني، وسنذكر الآن المصدر والإلهام الرئيس والأول لهذه الإيديولوجيا التي كانت كما نعرف وكما هو متعارف عليه بأنها من صلب الديانة البابلية.

لقد كان للبابليين الفضل الكبير في تيسير اطلاع الإغريق على العلوم الخاصة بالفلك ولقد أفادوا الإغريق أيضاً، ليس فقط بالإيمان بالظواهر السماوية ذات الصبغة الإلهية وإنما الإيمان بديانة خاصة بالنجوم متكاملة في حد ذاتها بمبادئها وأنظمتها الرئيسة.

إن أول هذه المبادئ هو التعاطف الكوني العام الذي يدخل ضمن العرافة ومعرفة المستقبل وبصورة أخص ضمن علم النجوم (انظر ص ١٦٣)، وهذه الممارسة في هذا المجال معروفة لدى البابليين منذ عصرهم الأول، وتطورت هذه الممارسة لتطور المصلحة الدينية للاستفادة من النجوم وكان هذا على يد الساميين (انظر ص ١٦٣). إن التأمل ودراسة النجوم والعناصر الكونية الأخرى المتعلقة بها طوال ألفين من السنين من بعد سلالة بابل الأولى أدت للوصول إلى علم متكامل خاص بالتنجيم، وخاصة أننا نجد تعمقاً في هذه الدراسة وتكاملها في العصر الآشوري الحديث، وأعطت هذه من جديد للبابليين نوعاً من المعرفة مبنياً على مبدأ التعاطف أو الجذب الكوني أو العالمي، وهذا يتجسم في الرمزية الخاصة بالنجوم في عالم وادي الرافدين القديم (انظر ص ٨٩ ...) ومن المؤلفين القدماء من يذكر صراحة وينسب « للكلدانيين » كونهم علماء في الفلك والتنجيم ومن هؤلاء المؤلفين الكاتب العبراني فيلون الذي كتب يقول:

« إن الكلدانيين هم الذين طوروا بصورة كاملة أكثر من غيرهم علم الفلك والعلوم الخاصة بأصول الأشياء والحوادث على الأرض بتلك التي تجري في الأجواء، وكذلك بين الظواهر السماوية وبين الظواهر التي في الأسفل وسبب هؤلاء تحسساً، لكل هذه العناصر، مثل موسيقا فكرية وسمفونية كاملة، والفضل يعود في ذلك إلى التجانس والتعاطف بين كل الأجزاء والعناصر، وعلى الرغم من بعد المسافات التي تفصل بينها فإنها تبقى مربوطة لأصولها المشتركة ».

لقد نجحت على ما يبدو الإيديولوجية الخاصة بالنجوم عند البابليين في تبديل صفات وعلامات الآلهة، وشمل هذا التبديل ما يخص سموهم وسيطرتهم التامة والحازمة على العالم والكون، وجعل البابليون الآلهة بالنتيجة مجرد قوى

كونية ترأس ما هو متجمع بانسجام من العناصر المكونة للكون المحققة والمثبتة من الفلكيين في وادي الرافدين[1] .

ومن جديد لم يرد إلينا نص صريح من وادي الرافدين بالذات يوضح لنا هذا التحول في الديانة البابلية في جوهرها وأصلها، ولحسن الحظ فإن هناك نصوص أخرى توضح لنا ظهور هذا التحول وتفسيراته وإعجاب الإغريق واقتباساتهم العديدة لمفاهيمه الجديدة بصورة خاصة وذلك من مؤلفات أفلاطون وغيره، ونذكر كذلك الحرص العميق الذي ساعد الإغريق على هضم هذا التحول، وقد تداخلت هذه الاقتباسات مع الإيديولوجيا الخاصة بالنجوم وأصلها من الساميين في وادي الرافدين.

حكم إجمالي:

تثمن الديانة الخاصة بالساميين في وادي الرافدين ويحكم عليها بكونها متطورة كما أنها أيضاً تمنحنا قيماً عميقة وتبدو لنا وكأنها ما زالت بعظمتها وجلالها القوي.

إنها أيضاً من نوعية الديانة « البدائية » وليس « التاريخية » أبداً كما هو موضح في الصفحة ٢٦ وترتكز تقريباً بصورة كلية على تقليد سومري عريق في القدم يتلخص في كون الألوهية منتشرة وموزعة في شخوص عديدة أي أن مذهب التشبيه في الدين واضح جداً. لقد مارس الساميون بعد ذلك هذا التقليد على شكل نشاطات في مجالات الظواهر الطبيعية وتبلورت حول هذه المجالات مفاهيم العبادة.

وعند إدراجنا لهذا التقليد الخاص بالديانة نجد أن الساميين الذين سيطروا على وادي الرافدين لم يشعروا بالحاجة إلى تبديل الأشكال، وإضافاتهم في هذا المجال غير ذات معنى، وحتى أنهم ربما حذفوا وأبطلوا الكثير من هذه الأشكال. ويجب الاعتراف مع هذا بأنهم أشبعوا كل ما اقتبسوه من السومريين بروح جديدة متأتية من إيمانهم الديني العميق الذي أملى عليهم خطأً خاصاً أثر

---

[1]- انظر ص ٩٠ . (المؤلف)

بكل عمق في تطوير ديانتهم ذات الطابع الجديد والتي أصبحت من الآن خاصة بهم.

وهكذا على شكل إدارتهم الملكية فقد نظموا عالم مجمع الآلهة بطريقة كاملة تشابه نظام الملوكية عندهم، إنهم في هذا المفهوم يعتبرون الشعب الوحيد في العالم القديم الذي يتوصل إلى بناء مفهوم الإيمان وذلك بتعدد الآلهة (ينسب إلى الإغريق أيضاً التوصل إلى مثل هذا المفهوم)، كذلك فإن دراسة الساميين الحازمة للعالم وبصورة خاصة للنجوم ودورانها ومداراتها سهلت لهم التوصل إلى ترتيب الكون بنظام أبدي. لقد عرف الساميون كذلك كيف يدخلون هذا النظام في عالم الآلهة، ونلمس ميلهم العميق في وضع انسجام معين تام للربط بين هذا العالم وبين عالم النجوم، ولقد وصلوا بذلك حتى هضموا جيداً السمو والعظمة الإلهية وحتى هضم سلطتها وتأثيرها الدائم والعام على العالم. لقد توصلوا، وهم الوحيدون بين شعوب العالم القديم أيضاً، إلى تكوين ديانة علمية حقيقية وبواسطتها يقتنع الإيمان بمعطيات عقلية، وهذا سر عظمة طرقهم المتبعة، ويثير إعجابنا بتطوير هذا الإيمان، والدور الذي لعبه في ديانة وفكر العصر الهيليني، ومن ذلك الدور العميق والتأثير البالغ على حضارة العالم اليوم.

إن المآخذ التي تؤخذ على طريقة التطبيق للديانة هذه هي أولاً شركها العميق والذي لم يستطع البابليون رغم جهودهم الجبارة تجاوزه، كذلك من المآخذ في هذا المجال هو الاحترام الزائد والخوف والتحفظ ومحاولة البعد عن كل ما هو إلهي، ولهذا فإنهم لم يتوصلوا إلى رصد هدف الإنسان أو الفرد ولم يثمنوا كذلك قيمته ودوره في الحياة. كذلك لم يعرفوا ولم يمارسوا أبداً كل ما هو « صوفي » أو ذو « نزعة صوفية ».

مصادر البحث:[1]

أجود المؤلفات الشاملة، في هذا الحقل من الدراسات، كتاب العلامة أدورد دورم « ديانات البابليين والآشوريين » المطبوع في باريس عام ١٩٤٥ ، وأعيد طبعه في عام ١٩٤٩.

E. Dhorme, Les religionsde Babylonie et d'Assyrie, Presses Universitaires de France، Paris.

إن هذا الكتاب الرئيسي لا يقلل أبداً من أهمية الكتاب الآخر المنشور في عام ١٩١٠ ومن قبل نفس المؤلف، É. Dhorme والذي أسماه: (الديانة البابلية والآشورية):

La religion assyro – babylonienne.

كذلك هناك دراسة تخص الديانة البابلية والآشورية، مهمة جداً بدورها، قام بإنجازها كاتب بولونيا، ومؤلفه يقع في جزئين: الأول طبع في عام ١٩٢٨ والثاني في عام ١٩٢٩:

G. Furlani, La religion babilonese – assira (Zanichelli, Bologne. Vol. I: Le divinitâ; vol. II: I miti e la vita religiosa).

وقبل ذلك، خصص العلامة الألماني المختص بعلن الآشوريات، البروفسور ماينسير. ب الجزء الثاني من مؤلفه المشهور: بابل وآشور، وذلك لدراسة ما هو خاص بديانة البابليين والآشوريين. وتعتبر هذه الدراسة مهمة أيضاً على الرغم من كونها تعرض قضايا ديانة هؤلاء بدون التعرض لها ودراستها بأسلوب وروح نقدية.

Meissner, B. Babylonien und Assyrien, Winter, Heidelberg, 1920 – 1925.

---

١ ـ مصادر البحث الرئيسية هنا تتعلق بالمؤلفات الخاصة بالديانة السومرية، ويمكن الرجوع إلى مؤلفاتي الأخرى للإفادة منها أيضاً، كذلك تتوفر أسماء مصادر عديدة في حقل هذه الدراسة في المصادر التي اعتمدت عليها في بحثي هذا. (المؤلف)

إن أروع المؤلفات في حقل الديانات البابلية والآشورية المنشورة قبل عام ١٩٢٠ بكثير، كتاب العلامة جاسترو، الذي يعتبر مرجعاً رئيسياً حتى يومنا هذا:

M. jastrow, The Religion of Babylonia and Assyria (Ginn and Co., Boston, 1898).

لقد أنجز جمع وتصنيف مؤلف جاسترو هذا في كتاب يقع في ثلاثة أجزاء مضافاً إليه جزءاً آخر يضم مجموعة من الصور الآثارية الخاصة بالموضوع، طبع بعدئذ باللغة الألمانية بين عامي ١٩٠٥ – ١٩١٢. ولكن هذا المؤلف لم يكمل كلياً على الرغم من احتوائه على مجموعة واسعة من المواضيع التي تتعلق بديانة البابليين والآشوريين بصورة مباشرة. وهكذا فعلى من يرغب بالاستفادة بصورة أوسع، أن يطلع على مؤلفات وشروح أحدث أيضاً: -

Die Religion Babyloniens und Assyriens, Giessen, 1905 – 1912.

إن الجزء الرابع من مؤلف العلامة الفرنسي: الدكتور جورج كونتينو يزودنا بوثائق مصورة ومكتوبة عن هذا الموضوع أيضاً، ويعتبر هذا الجزء ذو أهمية علمية واسعة في حقل دراسة الديانة البابلية والآشورية والسومرية كذلك.

Dr. G. Contenau, Le Manuel d'Archéologie Orientale, 4 vol. Picard, Paris, 1927, 1931, et 1947.

فهرس

المؤلف:

جان بوتيرو. ولد في فرنسا ـ مرسيليا. وأكمل دراسته في حقل الآثار واللغات السامية في باريس. ويعمل الآن أستاذا للغات السامية في السوربون ـ قسم الدراسات العليا ـ له تآليف عديدة في حقل اللغات السامية وخاصة الكتابات المسمارية من مدينة ماري (تل الحريري). كذلك ساهم في حل الكتابات المسمارية من مدينة سوس. له تآليف عديدة في الفلسفة القديمة في وادي الرافدين. واهتم أيضا بالتراث العبراني والعهد القديم.

المترجم:

الدكتور وليد الجادر. خريج كلية الآداب ـ الآثار ـ عام ١٩٦٢. حصل على دبلوم من كلية الدراسات العليا في باريس في حقل الكتابات المسمارية ـ الفترة الآشورية. وحصل من كلية السوربون على شهادة الدكتوراه، في موضوع الحرف والصناعات اليدوية في العصر الآشوري.

له كتابات في الأزياء: الملابس الشعبية في العراق. الملابس والحلي عند الآشوريين، وله مقالات بالفرنسية والعربية في مجلة سومر. كذلك له ترجمات عن الفرنسية منها: الطب البابلي والآشوري: مقال مترجم عن الفرنسية، نشر في مجلة سومر.



مركز الإنماء الحضاري

إصدارات جديدة 2004

المكتبة التاريخية

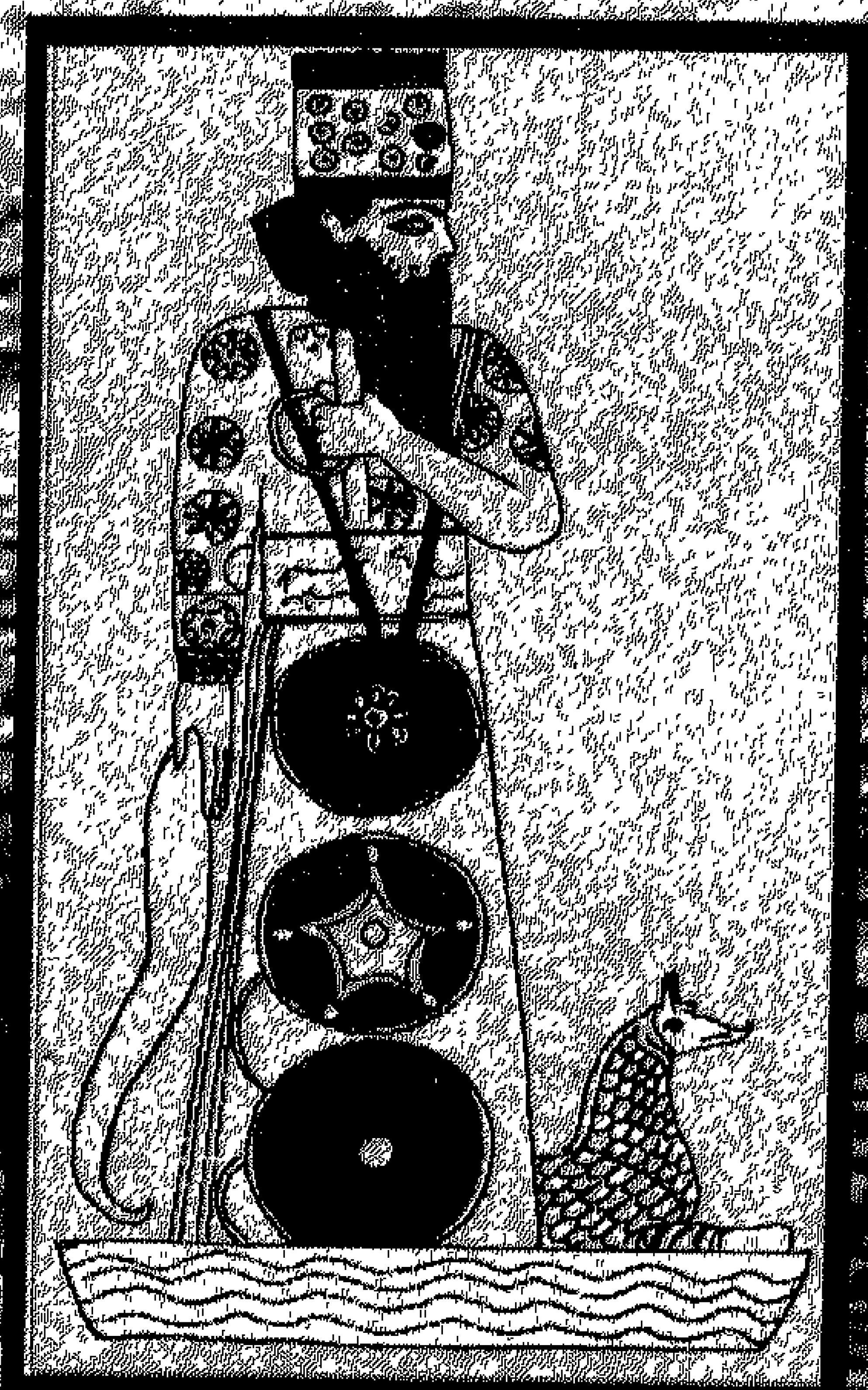
● حلب عبر العصور	جورج بلوا دو روترو ترجمة: د. زبيدة القاضي
● دراسات في حضارة المشرق العربي القديم	د. بشار خليف
● الكتابة «من الصورة إلى الأبجدية»	فيصل خرتش
● الديانة عند البابليين	جان بوتيرو ترجمة: د. وليد الجادر
● أساطير أوغاريتية «نصوص أسطورية وطقسية أوغاريتية»	آيسفلدت ترجمة: محمد وحيد خياطة
● المذابح والأضاحي «في حضارات المشرق العربي»	محمد وحيد خياطة

○ المروي له	د. عمر طالب
○ حدود التفكير الصوتي في التراث العربي	د. عبد القادر الجديدي
○ الموسيقا «مداخل المقدس والمدنس»	ابراهيم محمود
○ جماليات القصيدة العربية الحديثة	د. محمد صابر عبيد
○ من علم المعاني إلى علم الدلالة	مجيد الماشطة
○ اللسانيات والدلالة «طبعة جديدة»	د. منذر عياشي

حلب - سورية - ص.ب 6333 - BP. 6333 ALEP YRIA
هاتف : 2257565 (21) - فاكس: 2257565 (21) 00963
البريد الإلكتروني: center.e.c@aemail4u.com

La Rligion Babyionienne

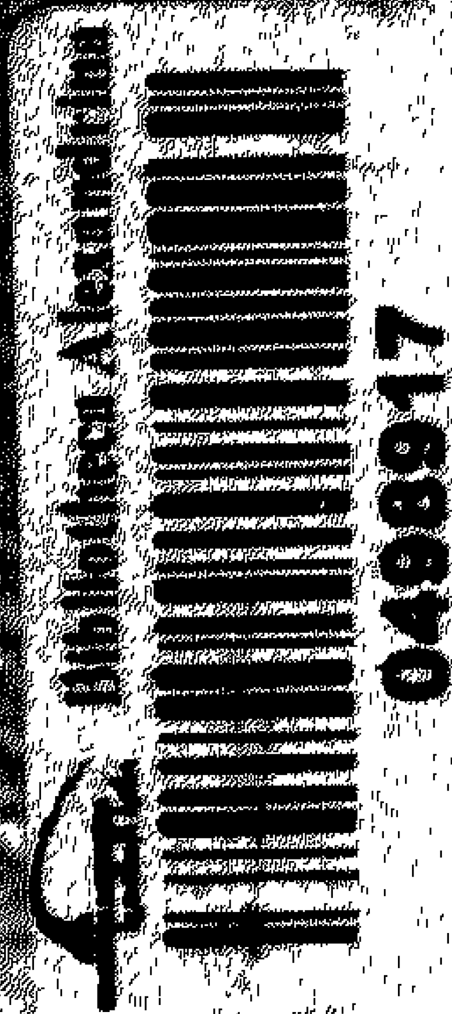
Jean BOTTERO



إن المشكلة المدروسة في هـذا الكتاب هي من المشاكل صعبة الحل ، ولكنها على أيـة حال مشوقة جداً ، ذلك لأنها تعطينا فكرة عن مكانة الساميين في تطوير الفكر الديني ، وعن المظهر الخارجي لهذا الفكر في بلاد الرافدين القديم .

إن المعتقدات الدينية عند سكان وادي الرافدين تزودنا بوثائق غنية وكثيرة ، تغطي تاريخ الديانة خلال ثلاثة آلاف عام ، وهذه المعتقدات الدينية والوثائق الخاصة بها ، يمكن أن نفهم [illegible] أنها هي التي سبقت الديانة المسيحية .

يعرّف هذا الكتاب بالديانة السامية والفكر الديني عند [illegible] ويدرس الديانة في وادي الرافدين ، بدءاً من [illegible] عندما [illegible] البابليون التاريخ ، وكانت فترة الاستقرار والازدهار [illegible]وعات الساميين ، فنظموا عالم مجمع الآلهة بطريقة كاملة كما درسوا العالم والنجوم و[illegible] ومداراتها ، مما سهل لهم [illegible] نظام أبدي وعرفوا [illegible] هذا النظام في عالم [illegible] علمية حقيقية [illegible] كان لها الدور [illegible]





CEC